الرحلة رقم ٧٧٩
المتجهة إلى لندن

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٣٥٧٨

بطاقة فهرسة

المصري، حسن عبد ربه

الرحلة رقم ٧٧٩ المتجهة إلى لندن: رواية/ حسن عبدربه المصري، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

١٥٢ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٤-٢٠٠-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

الرحلة رقم ٧٧٩

المتجهة إلى لندن

رواية

حسن عبد ربه المصري

إهداء..

إلى مصر الوطن والمواطن..

سليمان عبد المقصود..

وُلد صاحبنا منتصف عام ١٩٨٧ في بيت جده لأبيه المطل على جانب من حديقة الأورمان القريبة من صرح جامعة القاهرة العملاق.. وجاءت فرحة والديه بميلاده ممزوجة بفرحة فوز أبيه بمنصب كبير مدرسي اللغة الإنجليزية بمدرسة السعيدية الثانوية للبنين، وذلك نتيجة مباشرة للعديد من الإصلاحات التي أجرتها وزارة التربية والتعليم استجابة للشكاوى التي وصلت إلى مكتب الوزير في ذاك الوقت..

فيما بعد سيرتبط اسمه بكشف وثائقي مهم، أعلن قطاع الآثار العبرية بالمجلس الأعلى للآثار عن العثور عليه بمنطقة الفسطاط في نفس الشهر الذي وُلد فيه.. ارتباط نوعي دفع المشرف على رسالة الماجستير التي كان منكبًّا على كتابة فصولها أن يطلق عليه "توأم الجنيزة"..

(٢)

تعلَّم من والدته النظام واحترام الوقت الاعتماد على النفس.. وأخذ عن والده متانة البنيان والتريث في الحكم على الأشياء والعشق اللامحدود للغات الأجنبية.. لم يسمع عن دورة طلابية لتعليم اللغة الإنجليزية أو الارتقاء بمستوى دارسيها، يخطط المركز الثقافي البريطاني أو الأمريكي لعقدها، إلا وسارع بالانضمام إليها بتشجيع من والديه.. ولَّما فتش في داخله عن سبب هذا الهُيام الذي يندهش له زملاؤه وأصحابه.. اعترف أنه سمع من والده كلامًا منقولًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فهم منه أن من تعلَّم لغة قوم أَمِنَ شرَّهم أو مكرهم..

درَّب نفسه على الترجمة من اللغة الإنجليزية التي أصبح يُتقنها إلى اللغة العربية قبل أن ينتهي من مرحلة الدارسة الثانوية.. نشرت له المجلة الدورية التي تصدرها مديرية التربية والتعليم بمحافظة الجيزة عدة ترجمات حول الحضارة المصرية القديمة، أشاد بها مدرسوه..

(٣)

شارك في المسابقة التي نظَّمها قصر ثقافة «قصر النيل» للقصة القصيرة المترجمة بمناسبة بداية القرن الحادي والعشرين، وفاز بالمركز الأول..

عرف من مدير المركز وهو يهنئه بالفوز أن صحيفة الجمهورية ستدربه على الترجمة يومي الجمعة والسبت من كل أسبوع مدة عام..

رشحه تفوُّقه – خلال تلك الفترة – للحصول على وظيفة «مترجم تحت التمرين» بصفحة الأخبار العالمية بالجريدة بعد نجاحه في الثانوية العامة، كان يتحصل من ورائها على مبلغ خمسة وعشرين جنيهًا كل شهر..

حزن كثيرًا عندما حصل عام ٢٠٠٣ على مجموع ٧٥٪ في شهادة الثانوية العامة، لأن هذا الرقم لم يؤهله للالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية / كلية الآداب جامعة القاهرة، كما كان يُمني نفسه.. لم يكن أمامه إلا أن ينضم إلى قسم اللغات الشرقية عوضًا عنه..

وقف طويلًا أمام أي اللغات يتخصص فيها؟

قال له خاله الأصغر: "وانت عايز الإنجليزي تعمل به إيه؟».. ولمَّا بحلق فيه مستفهماً.. ردَّ الخال من فوره "ما انت زي اللبلب.. بتقرا وتكتب وترجم.. وما شاء الله بتقبض ماهية كل آخر شهر وانت لسه تلميذ!! شوف لك لغة تانية تنفعك.. جنب الإنجليزي..»

في اليوم التالي ضم اسمه إلى قائمة الراغبين في تعلم اللغة العبرية.. لم يعلق أبوه على اختياره.. كل ما قاله.. "ربنا يوفقك».

(٤)

أمضى سنوات الدارسة الجامعية على وتيرة متوازنة تجمع بين المواظبة على حضور المحاضرات والتردد على مكتبة الجامعة للاطلاع على واحد من المراجع التي لم يكن مسموحًا باستعارتها خارج المبنى.. وبين العمل في الصحيفة التي أصبح بعد عامين اثنين، واحدًا من مساعدي مسئول الشئون الدولية فيها، يُعتمد عليه كثيرًا في ترجمة معظم ما تنشره وكالات الأنباء الغربية حول ما يجري على مستوى دول الشرق الأوسط.. وإسرائيل على وجه الخصوص..

تخرَّج سليمان بتقدير "جيد" ضمن طلاب دفعة يونيه عام ٢٠٠٧.. وتوجه بعد أن حصل على أوراق تخرُّجه من مُسجل الكلية، إلى منطقة تجنيد القاهرة في اليوم التالي، هكذا نصحه مدير تحرير الصحيفة "علشان تخلص من الخدمة العسكرية وتشوف مستقبلك "..

هناك، شددوا عليه بضرورة الحضور مبكرًا بعد أسبوع لإجراء الكشف الطبي عليه.. كان من أوائل من حضروا إلى المكان. أتم خطوات الكشف بشكل تراتبي، وقال له الطبيب الذي اعتمد نتائجه: "مبروك.. لائق"..

بعد أن أمضى أشهر التدريب والعزل، أُلحق بإدارة التوجيه المعنوي..

(٥)

كان لعام ٢٠٠٨ علامات مميزة بساحة الصراع بين الفلسطينيين وإسرائيل.. كثرت الإضرابات والتظاهرات العربية بالضفة والقطاع.. ووقعت صدامات دموية كثيرة، استخدمت قوات الاحتلال حيالها القنابل الفسفورية والرصاص الحي.. استنكرت قوى حقوقية حول العالم الانتهاكات الإسرائيلية!! واستصدرت المؤسسات الدولية العديد من قرارات الإدانة والشجب!! واستنكرت الحكومات العربية ردود الفعل الإسرائيلية العنصرية ضد التحرك الفلسطيني السلمي .. وشهدت المجتمعات العربية القريبة تظاهرات متعاطفة ومناصرة لأعمال المقاومة الفلسطينية..

استدعاه الضابط الذي كان يعمل تحت رئاسته.. وقال له: "من النهاردة" أنت مسئول عن الأخبار اللي ح تيجي لنا من داخل إسرائيل".. اتسعت الابتسامة فوق وجهه.. ورد بتلقائية محببة إلى نفسه "تمام يا فندم"..

وغرق حتى أذنيه في العمل.. كان لا يترجم معنى النص الحرفي.. بل يعمل على الغوص في أعماقه وما بين السطور.. وكثيرًا ما بذل جهدًا أكبر لفهم المقاصد الإيحائية من ورائه أو ما بين السطور، كما يقولون.. استفاد من دراسته الجامعية لأجل تطعيم ما يترجمه، بما تعلمه ويعرفه من معلومات وحقائق موثقة حول سلوكيات المجتمع الإسرائيلي كلما كُلف بكتابة تقرير حول ما يرد في الصحف الإسرائيلية من أخبار تدور في معظمها حول تعاملات عسكرييها ومجتمعها المدني مع الانتفاضات الفلسطينية.

في نفس الوقت فتحت له دراسته وتخصصه بالإضافة إلى ما يقع تحت يديه من أخبار وتقارير، الباب على مصراعيه لكي يقارن بين وقائع التاريخ اليهودي الممتلئ بالأساطير، وبين حالة "الخوف من الموت" التي فرضت نفسها على عقليات أبنائه وجعلتهم دائمًا على استعداد للبقاء داخل المخابئ لأطول فترة ممكنة خشية التعرض للموت، كلما انطلق صاروخ بدائي الصنع تجاه المستوطنات القريبة من قطاع غزة..

أنهى سليمان فترة الخدمة العسكرية منتصف عام ٢٠٠٩ وحظي بشهادة تقدير كان يتوقعها بعد أن لمس تشجيع رؤسائه له وتقييمهم العالي للمجهود الذي كان يبذله بلا شكوى، وتوَّج قائده اعتزازه بما قدمه خلال فترة التحاقه بالإدارة بالقول: "انت لو تفرغت لدراسة التاريخ اليهودي.. ح تبقى حاجة كبيرة قوي في هذا التخصص".

شكره وتسلَّم منه الشهادة وهو في أعلى قمم سعادته.

علق أبوه على الشهادة لما قدمها له وحكى له عن كلمات التحفيز التي قيلت في حقه، قائلًا بنبرة ابتهاج "يا ريت تعمل بالنصيحة.. الراجل ده عنده نظرة في الناس.. ثم إنه مش عايز منك حاجة".

هز سليمان رأسه واعدًا بالتفكير في الموضوع بجدية.

(٦)

كان صاحبنا في هذه اللحظة موزعًا بين حلمين عظيمين يجد نفسه مشتتًا بين كيفية المفاضلة بينهما والسبيل الأنسب لتحقيق ما يقع عليه اختياره منهما.. أن يسلك الطريق الأكاديمي أو يندمج أكثر وأكثر في مجال الصحافة.

في طريقه إلى حجرته قال في نفسه بقلب مطمئن تعليقًا على وجهة نظر أبيه.. "إذا ربنا بعتي لي بشارة من عنده، ح امشي في سكة التخصص اللي شجعني عليها حضرة الضابط.. واللي انا عارف إن أبويا بيتمناها لي من كل قلبه".

(٧)

وسرعان ما جاءته البشارة.. وجه مركز الدراسات الإسرائيلية بجامعة عين شمس الدعوة لمدير تحرير صحيفة الجمهورية للمشاركة في ورشة عمل سيعقدها قريبًا حول "تراجع مؤشرات السلام في ظل حكومة بنيامين نتنياهو".. فكُلف سليمان بأن ينوب عنه في حضورها لانشغاله بأمور أخرى، وأعطاه ظرفًا كبيرًا يحتوي على كل ما يتعلق بها.

تصفح أوراق الدعوة.. ستعقد بالمركز لمدة يومين كاملين.. وعليه أن يختار موضوعًا لكتابة بحث من ١٥٠٠ كلمة يتناول أحد عناصر فاعليات الورشة.. بالإضافة إلى المشاركة في المناقشات التي ستدار خلال اليومين وصياغة البيان الختامي للورشة..

تخيَّر سليمان موضوعًا كان متحمسًا له منذ فترة، ولم يسعفه الوقت لإنجازه.. جعل عنوانه "الديانة اليهودية تعادي عنصرية اليمين الإسرائيلي"، فجاء مناسبًا لفكرة انعقاد الورشة.. اجتهد بمتعة في جمع مادته مما كانت

تنشره وكلات الأنباء، ومما كان يختزنه في بنك معلوماته الفضائي .. وانتهى من كتابته في وقت قياسي.

ذهب مبكرًا إلى مكان انعقاد الورشة.. ولما جاء دوره للحديث.. وُفق في عرض بحثه، كما وفق في الرد على الأسئلة التي أُثيرت حوله، رغم التلعثم العارض الذي شعر به عندما بدأ في الرد علي تعليقات جمهور الحاضرين ومداخلاتهم.. في نهاية الوقت المخصص له حظي بتقدير لم يكن يتوقعه..

اتسعت دائرة معارفه بعد هذه المشاركة.. صنع من العلاقات العامة التي وجد نفسه في دائرتها شبكة من أصدقاء جدد.. كلهم كانوا من ذوي الاهتمام بالدراسات اليهودية الدينية والتاريخية.. وجد نفسه ينساق بوعي وإدراك إلى محيطهم وإلى الجديد من اهتماماتهم التي لم تكن تشغله إلا قليلًا.. وتحول بالتدريج إلى مُشارك منتظم في غالبية المحاضرات الجامعية والندوات وورش العمل البحثية التي كانت تُعقد حول الديانة اليهودية وسياسات إسرائيل العنصرية تجاه الشعب الفلسطيني ودول الجوار، وكذا نظرة وسائل إعلامها المتعالية لما يجري في المنطقة ككل.

(٨)

نصحه واحد من كبار الباحثين المتعمقين في الدراسات اليهودية بشقيها الدين والتاريخي، الذي التقاه عدة مرات، أن يتفرغ بعض الوقت لاختيار موضوع بحثي على مستوى أكاديمي لنيل درجة الماجستير ثم الدكتوراه.. واصفًا إياه بأنه لم يَعد.. "دودة بحثية.. انت بقيت حوت.. ولازم تاخد مكانك في الكارير الأكاديمي.. والمسألة ح تبقى سهلة عليك.. لو لقيت المشرف اللي يعرف ينظم إمكانياتك.. ويوجهك الاتجاه البحثي الصحيح"..

فكر مليًّا في الموضوع، اقتنع أن ما سمعه من صاحب هذه القامة البحثية الأصيلة يعتبر بشارة ثانية عليه أن يستجيب لها.

تواصل مع واحد من أساتذته القدامى.. رحب بالتعاون معه في هذا الشأن.. ولما تقابلا لأول مرة.. اقترح عليه أستاذه بعد مناقشات مستفيضة ارتكزت على تراكم الخبرات، أن يضع يده على أطروحة يشكل موضوعها نواة للحصول على الدرجتين.. الواحدة تلو الأخرى.

تحول سليمان إلى كائن بشري من نوع جديد.. لم تكن تعرفه أسرته من قبل، حتى أصدقاؤه القدامى لم يستوعبوا ما لاحظوه عليه من تغيرات.. أصبح كائنًا بشريًّا نهمًا لك ما هو جديد في مجال مناهج البحث العلمي.. إذا تعرف على معلومة جديدة، لا ينام حتى يتحقق من مصداقتها العلمية.

في وقت قصير.. تحول إلى "محولجي" يحول كل ما يتوافق مع أفكاره البحثية إلى مادة قابلة للتخزين في دماغه ودماغ اللاب توب الأكثر اتساعًا!! وإلى قائد مركبة صاروخية يعرف عن ظهر قلب أقصر الطرق التي عن طريقها ينفذ إلى قلب البحوث الجديدة التي يتوالى نشرها هنا وهناك.. هذه الحالة الجديدة التي فتحت شهيته للبحث العلمي المتخصص، دفعته للانضمام إلى عضوية بعض المراكز البحثية والمجموعات العلمية الغربية المتخصصه في ميدان دراسات الأديان والتاريخ اليهودي..

تنامى داخله السعي بلا كلل لامتلاك كل ما هو جديد.. أصبح يقضي الساعات الطوال غارقًا مع كل ما تنشره وكالات الأنباء الأوربية والأمريكية.. ومع كل ما ينشر من كتب قديمة وجديدة، ما دام ثمنها يتوافق مع قدراته..مع مرور الوقت وتنامي حجم ما يُخزنه.. وارتفاع سقف سعيه الدؤوب للحصول على كل ما يسمع عنه أو يصل إلى صفحته الشخصية، أصبح هذا النهم نقطة ضعفه الوحيدة.. يمكن أن يتنازل عن ساعات راحته، وأن ينفق من مدخراته ما كان يحتفظ به لغرض آخر في سبيل الحصول على مادة بحثية جديدة أو يستمع إلى محاضرة تتحدث عن جانب يراه على قدر من الأهمية العلمية التي قد يحتاج إليها في المستقبل القريب..

(٩)

في خضم هذه الحالة التي أصبح عليها صاحبنا..

استقبلت نخب ومثقفو المجتمع المصري ووسائل إعلامه بمزيج من الترحيب والفخر ما نشرته الجهات المختصة من أخبار تتعلق بالقيمة التاريخية المتفردة لمجموعة الأوراق والوثائق التي عثر عليها فريق من المتخصصين في كشوفات آثار العصور الوسطى بمنطقة الفسطاط عام ١٩٨٧ والتي أطلق عليها مصطلحُ "أوراق الجنيزا".

لأكثر من سبب، كان سليمان من أوائل المهتمين صحفيًّا وبحثيًّا بهذه الإفراجات الكشفية، بعد أن نشرت وسُمح للإعلاميين والمتخصصين بزيارة المعبد اليهودي الذي يحتفظ بها بعد أن قام العلماء والمشرفون عليه بتسجيلها بطريقة علمية.. كتب عنها في الصحيفة المصرية التي يعمل بها وفي بعض المجلات العربية، بإسهاب أكثر من مرة..

إلى جانب عمله الإعلامي، جمع العديد من المعلومات العلمية في ملف

خاص بهذه الكشوفات وقيمتها التاريخية ضمَّه إلى فهرسه الشخصي الذي يحتوي على أعز وأغلي ما يملك من معارف ومعلومات ووثائق.. إلخ.. ولما زادت حصيلتها، جمعها كلها في فلاشة كبيرة الحجم تتسع لما يستجد على مستوى هذه الكشوفات لسنوات قادمة..

تكررت زيارته للمعبد.. وكان أن توثقت صلته بالقائمين على أمره.. مما أتاح له أن يضيف إلى معارفه الشخصية وحصيلته العملية كل ما يكتشف حول الأهمية الدينية للأوراق وتواريخ الاكتشافات التي عُثر عليها في نفس المنطقة قبل نهاية القرن التاسع عشر في المكان الذي نزل به الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون، بصحراء مصر القديمة عندما فر هاربًا إلى مصر من الأندلس.

حَزَّ في نفس سليمان أن كميات الوثائق التي اكتشفت قبل عام ١٩٨٧ خرجت من مصر، وأنها اليوم موزعة بين كبريات الجامعات العالمية وفي مقدمتها جامعة كمبريدج، وأن محتوياتها تُرجمت إلى العديد من اللغات الأوربية.. لذلك أحس بالعجز عندما أدرك استحالة التعامل مع هذا الكنز الثمين، وهو مقيد في مكانه بمصر.

(١٠)

تلقى دعوة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة للاستماع لمحاضرة ستلقيها المؤرخة الأمريكية الشهيرة سيرينا جولدن شتاين حول اكتشافات أوراق الجنيزة التي عثر عليها مؤخرًا في صحراء الفسطاط، كونه واحدًا ممن كتبوا عنها قبل فترة من الزمن.. فشعر بسعادة بالغة.. وأدرك قيمة تقدير هذه الجامعة الأكاديمية للتقارير الإعلامية التي بذل فيها جهد كبير، ومدى حرص الباحثين العاملين فيها على توسيع دائرة التعريف بها.

قام من فوره بفتح قائمة مقتنياته الشخصية وأعاد قراءة عدد لا بأس به مما جمعه وكتبه حول هذا الموضوع.. واسترجع علامات الاستفهام التي سجلها حول ما نُشر عن هذه الاكتشافات.. وحدد مسبقًا بعض الأسئلة التي يمكن أن يختار واحدًا منها لكي يطرحه على المتحدثة إذا ما أُتيحت له الفرصة لذلك.. لأن تكرار تجربة مشاركته في مثل هذه الفاعليات، علمه أن لا يترك شيئًا للمصادفة أو لنوعية اللقاء.. كان شعاره الذي تعلمه وجربه بنجاح عشرات المرات "كن مستعدًّا لاستغلال اللحظة قبل أن يحين وقتها"،

ثم أصبح هذا الشعار وما اكتسبه من تجارب علمية، محركه التلقائي في مثل هذه الأحوال.. باختصار لم يعد خاملاً كما كان وهو في أول الطريق..

عند بوابة مكتبة الجامعة.. أبرز بطاقة الدعوة.. أشار أحدهم إلى مسار خاص بالإعلاميين.. في داخل القاعة، التي كان يجلس فيها لأول مرة، وجد كرسيه في منتصف الصف الثاني.. فرز بعينيه المكان والحضور، هاله حجم الكتب والوثائق وأدهشه عدد المدعوين.. حيَّا من يعرفهم، وابتسم في وجه من حياه بدون معرفة..

استمع جيدًا للمحاضرة التي استمرت لأقل من الساعة.. ركز على أمرين.. الأول ما تعرضت له المتحدثة من مقارنات بين الكشوفات السابقة والحديثة.. والثاني الكم الهائل من المراجع الذي استعانت به لشرح وجهة نظرها.. ولأنه كان مستعد و"مجهز نفسه " على رأي والده. كان من أوائل من رفعوا أيديهم لمداخلة أو طرح سؤال.. عَرف نفسه كما طُلب منه، وطرح السؤال الذي كان مسجلًا بدقة ومهنية في ورقة قرأ منها.. استحسنت المتحدثة سؤاله.. ردت عليه باختصار لضيق الوقت.. ورجته أن يبقى لبضع دقائق بعد انتهاء اللقاء لكي تُطلعه على عناوين بحوث علمية إضافية في هذا الخصوص، وربما تشرح له كيفية الحصول على بعضها.. وعدها بذلك.

كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها وجهًا لوجه مع قطب من أقطاب العالم الغربي المتميز في هذا الميدان، هكذا وصفتها الكلمات القلية التي اختارتها

اللجنة المنظمة للتعريف بها، لم تكن طاعنة في السن كما تخيل.. لمس فيها ثقة بالنفس.. وسعة صدر.. وتعمق بلا ادعاء.. أثنت على ما نشره من تقارير حول الاكتشافات الجديدة.. وأضافت "على فكرة أنا خزنتها كما هي في الأرشيف الخاص بمكتبة الجامعة.. لتكون متاحة لأكبر عدد من الطلاب والباحثين وأصدقاء الجامعة الأمريكية ".

أمدته بقائمة من البحوث المستجدة وشرحت له كيفية الدخول إلى فضائها المعلوماتي كصديق من أصدقاء الجامعة الأمريكية، بعد أن تُزكيه هي لهذه المجموعة النشطة علميًّا ومجتمعيًّا.. ونصحته أن يقوم من فوره بسداد قيمة الاشتراك لكي يتاح له الاستفادة من برنامجها الربع سنوي الجديد.. وعدها بذلك، وهو يقدم لها نسخة من بياناته الشخصية اللازمة لإتمام هذا الأمر.. نصحته قبل أن يفترقا.. أن يهتم بالدراسات التي تُركز على أوجه التشابه بين الديانتين اليهودية والمسيحية في مجال التجارة.. التي كانت مزدهرة بين المقاطعات الأوربية وبلدان الشرق الأوسط في العصور الوسطي.

عندما عاد إلى شقته.. عاتب نفسه أن مثل هذه العلاقة – بين أوربا والشرق الأوسط – لم تلفت انتباهه بعد أن لاحظ تعدد الوثائق – الشخصية والرسمية – التي تتناولها.. ولكنه سرعان ما ترك العتاب وراء ظهره عندما أدرك قيمة المكاسب التي من المؤكد سيتحصل عليها من جراء انضمامه إلى جماعة أصدقاء تلك الجامعة.

(١١)

بعد أيام قليلة تلقى رسالة من قسم العلاقات العامة بالجامعة الأمريكية ضمن بريده الإلكتروني تقول: "بناء على توصية السيدة جولدن شتاين .. قُبلت عضوًا بجماعة أصدقاء الجامعة الأمريكية.. بادر بالحضور لكي تقوم بسداد قيمة الاشتراك.. وهات معاك صورتين.. علشان نعمل لك كارنيه العضوية ".. سأل نفسه: "هيا الأمور بتتاخد عندهم بسرعة كده ".. ثم قرر عدم مواصلة التفكير حتى لا يرهق نفسه بلا جدوى..

مع الكارنيه.. تحصل على البرنامج الربع سنوي لنشاط الجماعة.. ومنه عرف أنها ستقوم بعد أسبوعين بزيارة إلى دير سانت كاترين.. انتهز الفرصة.. قام بزيارة تفقدية لمكتبة الجامعة، تعرف عن قرب على التقنيات المعلوماتية ووسائل الاتصال التي توفرها للدارسين والزوار.. شاهد عن قرب قوائم المكتبات الأمريكية والأوربية ذات الصلة بالمكان الذي يقف فيه وفي مقدمتها مكتبة الكونجرس الأمريكي.

لمحته سيرينا عن بُعد وهي تتناقش مع عدد من الدارسين.. أشارت إليه أن ينضم إليهم.. اقترب على مهل.. قدمته لطلابها.. هنأته بالحصول على العضوية، وعرف منها أنها ستكون على رأس المجموعة المسافرة إلى دير سانت كاترين بجنوب سيناء للاطلاع مع طلبة الدراسات العليا على عدد من المخطوطات النادرة التي تحويها مكتبة هذا المكان العريق.. نصحته أن ينضم إليهم.. وأضافت "هناك ستجد ردًّا على الأسئلة الكثيرة التي تدور في ذهنك.. خاصة ما يتعلق بالعلاقة بين الديانتين اليهودية والمسيحية على المستويين المجتمعي والتجاري.. لأن صحراء سيناء كانت دائمًا وعلى مدار مئات السنين معبرًا للتجار ورجال الدين من الطرفين المسافرين من إقليم الشام وتركيا وأوربا إلى مصر، ومن مصر والشمال الأفريقي وقلب أفريقيا إلى الشام وأوربا ".

لم تسعه الفرحة، رد عليها شاكرًا ومرحبًا بالفكرة..

في اليوم التالي سدد ما هو مطلوب منه.. وحصل على تذكرة السفر بالبر مرفقًا بها تفاصيل وتوقيتات برنامج الزيارة.. واندهش عندما عرف أن الأساتذة والطلاب سينامون في أماكان مخصصة للقساوسة ويأكلون من طعامهم.. أثلج صدره أن معايشة التجربة ربما تعيده إلى جو الطلاب الجامعيين وشقاوتهم، وقال لنفسه: "ده لو كان طلاب الجامعة الأمريكية ولاد الناس الأكابر.. بيعرفوا يتشاقوا زي ولاد الناس الغلابة ".

(١٢)

قدر مدير التحرير الذي يعمل تحت رئاسته حماسة.. ونسق معه أن يوزع كتاباته التي سيرسل بها في أثناء سفره إلى جنوب سيناء.. بين تحقيقات ميدانية تلقي الضوء على مخطوطات الدير ومقتنياته التاريخية.. ومراجعة صياغات ما يترجم عن وكالات الأنباء التي سيرسلونها إليه..

لما استقر به المقام داخل مبنى الضيافة بالدير.. وزع ساعات الصباح الأولى لمراجعة بعض المواد التي ستنشرها صفحة الشئون الدولية.. وبقيته لمرافقة طلبة الدراسات العليا وفق برنامج جولاتهم.. واحتجز جزءًا من الليل للكتابة عما سجله من معلومات تحصل عليها في أثناء تجواله حول تاريخ الدير..

وبدأ بمجموعة الأساطير التي تتحدث عن لوحة التجلي وبئر موسى.. وشجرة العليقة الملتهبة التي اشتعلت فيها النيران لترشد موسى عليه السلام إلى المكان الذي كلمه فيه الله عز وجل.. وكتب عن المسجد الذي بناه الحاكم

بأمر الفاطمي داخل أسوار الدير.. ومزج بينها وبين التنقلات المعارفية التي يقوم بها ضمن الطلاب الزائرين.. وخصص مجموعة من الكتابات المتتالية لتغطية الجوانب المعمارية للدير وما تتميز به من أنماط هندسية يقال إنه لا مثيل لها على مستوى الأديرة المنتشرة في ربوع مصر..

داوم على هذا المنهاج طوال أيام الرحلة..

انفرد مع نفسه صباح اليوم قبل الأخير للعودة إلى القاهرة لزيارة مكتبة الدير والخزانة المقدسة.. هاله ما بهما من مخطوطات ووثائق، العديد منها مكتوب بخط اليد بلغات كثيرة، يأتي في مقدمتها اللاتينية والإيطالية والفرنسية والعربية والسريانية والعبرية.. فهم من القساوسة اليونانين المشرفين على قطاع المكتبة وملحقاته، أنها تأتي في الترتيب بعد مكتبة الفاتيكان.

نقل على أوراق معه أسماء بعض أمهات المراجع وأشهر الدراسات والوثائق التي تناولت حركة التجارة والسفر بين دول أوربا من ناحية والشام ومصر وشمال أفريقيا من ناحية أخرى.

تعرف عند تسجيل وقت مغادرته للمكان إلى ضابط كندي من العاملين ضمن مجموعة قوة السلام الدولية المقيمة في منطقة الجورة بشمال سيناء.. عندما كان ينتظر هو أيضًا دوره لتسجيل خروجه.. حيث بادره سائلًا بلكنة شامية: " الأخ مصري.. مو هيك؟ " التفت إليه سليمان، وقال وهو يمد يده

للتحية: " أيوه وحضرتك؟ " رد من فوره وقد علت وجهه فرحة من وجد كنزًا غاليًا: "شكيب ضابط بقوة السلام الدولية.. هون في سينا".

خرجا معًا من بناية المكتبة إلى ساحة الدير التي تفصل بينها وبين مجموعة المباني الأخرى.. عرفه سليمان إلى نفسه: " صحفي بجريدة الجمهورية.. وفي زيارة للدير مع طلاب الجامعة الأمريكية ".. أكمل شكيب: " أنا متل ما قلت لك.. ضابط كندي من أصل سوري.. انضميت للقوة الدولية من عام.. مبسوط إني تعرفت عليك.. لأني أنوي زيارة القاهرة قريبًا أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة، لما أتحصل على إجازتي التالية "..

أسرع سليمان بالتقاط الكارت الخاص به من حافظة نقوده.. قدمه لشكيب وهو يقول.. " تشرف وتآنس.. أهلًا وسهًلا.. لما تنوي.. عندك هنا رقم الموبيل.. اتصل ونتفق نتقابل إزاي.. وياريت نقدر نقوم بالواجب ".

علق شكيب وهو يطالع ما هو مكتوب على الكارت " أكيد ح اتصل فيك.. بس أرجو ما يكون فيه إزعاج لكم "، ثم تابع معتذرًا: " أنا آسف.. ما معي كارت.. نحنا ما بنحمل متل هذه الإشيا ".. بادره سليمان: " ولا يهمك "..

سارع بفتح النوتة التي يسجل بها متابعاته وملاحظاته اليومية.. تخير صفحة فارغة وقدمها له مع قلمه الذي لا يترك أصابعه.. وهو يقول: " اعتبر دي كارت شخصي لك ما فيش زيه.. كفاية تكتب اسمك ورقم

الموبيل بتاعك.. وأنا ح أعرفك أول ما تتصل ".. انفرجت أسارير شكيب ضاحكًا.. وكتب على الورقة ما طلبه منه، ثم أردف: "مهضومين والله كتير أنتم يا مصريين.. كل عقده ولها حل عندكم "..

قدم الورقة لسليمان التي نظر إلى ما حرره الواقف امامه.. ثم قرأه على مهل " شكيب بن حيدرة ".. لم ينتظر صاحبه المزيد.. وقام من فوره بترديد أرقام هاتفه.. ثم أضاف: " الاسم يمكن يكون غريب عليك ومانو متدوال في مصر.. ها يدي الكيفية اللي بيسجل أبناء الطائفة الدرزية في سوريا ولبنان اسماء مواليدهم "..

مد سليمان يده مودعًا.. بادر شكيب بالقول.. " لو وقتك يسمح ممكن تقبل دعوتي عل كاسة شاي بالفندق اللي نحنا نازلين فيه "..

اعتذر سليمان لكثرة مشاغله قبل مغادرة منطقة الدير ظهر الغد..

تصافحا بمحبة.. على اتفاق بلقاء قريب في القاهرة.

استدار سليمان خارجًا من باب الدير المنخفض للحاق بمجموعة الطلاب في الكافيتريا القريبة وهو يعيد قراءة ما خطه صاحبه على الورقة بحروف لاتينية متناسقة: " شكيب بن حيدرة "..

فوجئ سليمان، في اليوم التالي، وهو يشارك مع سيرينا وبعض الطلاب في ترتيب الحقائب ببطن الأتوبيس بمن ينادي عليه: " أستاذ سليمان "..

شاهد عن بُعد شكيب وهو يمسك بيد من يبدو عليها أنها زوجته.. ويحمل بالأخرى طفلة صغيرة، لا يتجاوز عمرها الخامسة تمسك بحرص شديد بلعبة الدب بين يدها.. أشار بيده لسيرينا مستأذنًا " صديق تعرفت عليه أمس جاء يودعني.. ح أسلم عليه وارجع لك ".

هزت رأسها وطلبت من دارس قريب منها أن يحل محله.. صافحه شكيب.. ولما مد يده لتحية زوجته.. سمعه يقول: " سهلية.. مرتي "، ثم أشار إليه "هدا الأستاذ سليمان.. الزلمة المصري يا لي تعرفت عليه البارحة.. وحكيت لك عنه ".. صافحته بحرارة.. عانقه شكيب بعد أن أنزل ابنته على الأرض..

انحنى سلميان مقبلًا يد الصغيرة التي عانقته بعفوية دون أن تترك عروستها الدب.. احتضنها سليمان وهو يمسح على ظهرها.. بينما أذنه تلتقط صوت أبيها وهو يقول: " أميرتنا الغالية.. عقيلة ".

رفع سليمان الصغيرة بين يديه إلى أعلى وهو يقول بابتسامة عريضة: " باسم الله ما شاء الله.. ربنا يخليها لكم ويحفظها "، سأل الصغيرة بابتسامة مرحة.. " اسمه إيه الدب الجميل ده ".. احمرَّ وجهها.. وبدلًا من الرد.. سمحت له أن يحتضن الدب معها.

تركها شكيب بين ذراعي صاحبه.. وهو يقول: " أنا قلت لحالي.. ما دمنا قادمين اليوم لزيارة جبل موسى.. ليش ما بنوفر وقت حتى نراك ونسلم

عليك.. وندعو لك بالسلامة.. وبالمرة.. تتعرف على عقيلة وإمها ".. رد سليمان وهو يقبل الصغيرة.. " أحلى حاجة عملتها.. إنك عرفتني على عيلتك الجميلة دي ".

استعاد شكيب ابنته ودبها إلى صدره.. صافحه سليمان هو وزوجته.. رفع أصابعه بقبلة في الهواء للصغيرة.. ولوَّح لها مودعًا وهو يقول " باي ".. ردت " باي يا عمو " وهي تُخبِّئ رأسها المتوج بالشعر الذهبي في حضن أبيها خجلًا وهي تعض على أذن عروستها.. بينما أبواها يعبران حدائق الدير إلى الطريق الذي يقود إلى الجبل.

تذكر وهو بين النوم واليقظة، داخل الأوتوبيس الذي ينقل الزائرون إلى القاهرة، السؤال الذي طرحه على نفسه قبل التوجه إلى دير سانت كاترين " هل طلاب الجامعة الأمريكية زي ولاد جامعات الغلابة ".. قال لنفسه وهو يستسلم للنوم " والله الفرق مش كتير.. دول طلبة ودول طلبة، بس شتان بين طريقة تفكير دول.. ودول ".

في أثناء رحلة العودة.. استيقظ مرة عندما توقف الأوتوبيس عند المعبر الفاصل بين جنوب سيناء ومنطقة قناة السويس لمراجعة أسماء الركاب والتيقن من أن ليس بينهم دخيل، والثانية عندما دخل الأوتبيس إلى باحة بناية الجامعة القديمة بوسط القاهرة.

(١٣)

أول ما فعله بعد أن استسلم لراحة قصيرة من عناء الرحلة، أن راجع الفهرست الخاص به.. أعاد قراءة عناوين الخطابات الشخصية والرسمية التي عثر عليها في خبيئة الجنيزة.. وتصفح عددًا من الدراسات التي تناولت حياة اليهود ومعيشتهم في مصر وشمال أفريقيا.. وقارن بينها وبين المسميات التي أطلقت على عدد من الوثائق المسجلة بمكتبة الدير.. استشعر في نفسه القدرة على الربط علميًّا بين بعض الدراسات التي اهتمت بما شهدته الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلادي من نزاعات سياسية وحملات عسكرية وربما أعمال قرصنة بحرية، وبين الحالة التجارية للدول المتنازعة سواء في الشرق أو في الغرب.

اقتنع بضرورة القيام بعدة زيارات لمعبد ابن عزرا في أقرب فرصة لتنشيط الذاكرة.. ونفذ ما قرره بلا تكاسل، سجل بشكل مبدئي ما هو في حاجة إلى جمعه من معلومات لتغطية العناصر الأولية التي رأى أنها تتوافق مع تفكيره

المبدئي.. حرر خطة أولية لمشروع رسالة الماجستير.. وحرص أن تكون بعد إجازتها، مقدمة عملية لنيل درجة الدكتوراه إذا حالفه التوفيق..

ساعده المشرف على تنقيح بعض المصطلحات التي جاءت في خطته البحثية.. اتفق معه على منهج علمي لدراسة الوثائق التي تدعم مشروعه الدراسي.. بعدها قدم المشروع إلى القسم المختص بجامعة عين شمس.. وحصل على الموافقة الأكاديمية لتسجيل رسالته.

بدأ في ترتيب محتويات خزانته الورقية والإلكترونية.. حدد بشكل عملي ما هو في حاجة إليه ليبدأ في كتابة الإطار العام للرسالة..

شارك في معرض الصور الذي نظمه طلاب الجامعة الأمريكية للتعبير عن رؤيتهم لرحلة دير سانت كاترين.. دردش مع بعض من تعرف عليهم في أثناء الرحلة.. أقبلت عليه سيرينا مرحبة.. سألته: هل قدم مشروع رسالته لنيل درجة الماجستير؟ ابتسم: "وتمت الموافقة عليه، وبدأت في كتابة الفصل الأول".. رجته أن يوافيها بخطة العمل وهي تقول: "يمكن أقدر أساعدك".. ثم أضافت وهي تنظر إليه في عينيه: "لو عرفنا نوفر لك منحة دراسية هنا ولا هناك.. عندك استعداد تجهز أوراقك وتسافر علشان تلحق العام الدراسي القادم؟".. بوغت..

لم يصدق أذنيه.. هل ما يسمعه بشارة خير؟ أم صدى أحلامه التي أصبحت تلازمه منذ فترة.. رد عليها بلا تفكير " طبعا.. بس انتي وفريها.. وح تشوفي أنا ممكن اعمل ايه ".

عاد إلى حجرته التي أحس لأول مرة أنها ضيقة عليه وعلى ما يدور برأسه من أفكار.. قال لنفسه وهو يتجه ناحية سريره.. " طبعًا ح تكون منحة من جامعة أمريكية ".. ثم استكمل حلم اليقظة وهو يطفئ الإضاءة القريبة منه " بس يا رب تكون من جامعة عليها القيمة "..

سارع بمراجعة نفسه وهو يلقي بنفسه فوق السرير، كما لو أن رسول المنحة يهم بالمناداة عليه.. وقال لها معنفًا.. " يا عم انت ح تتنطط من دلوقتي.. أي جامعة عنوانها في أمريكا وخلاص "..

أعجبتها خطة العمل التي أعطاها نسخة منها.. استوضحت منه بعض العناوين.. وناقشته في بعض العناصر.. ونصحته أن يهتم بالحصول على أكبر عدد من الوثائق، خاصة تلك التي لم تنشر بعد، والتي توثق لوجهة نظره العلمية.. وسألته: "عارف ليه؟ " هز رأسه نفيًا.. ربتت على كتفه وهي تقول: "علشان دي البوابة التي ح تشهرك خارج مصر وتخليك أكاديمي معروف وله وزنه ".

تناقشا معًا لبعض الوقت في أمور عدة.. فهم منها أنه ليس من الضروري أن يحصل على المنحة من جامعة أمريكية.. وشرحت له.. " فيه جامعات في أوربا واليابان وكندا وحتى في روسيا.. عندها اهتمام واسع قوي بدراسات القرون الوسطي ".. وعرف منها قبل مغادرة مكتبها.. ان مثل هذه الجامعات توفر للدارسين مبالغ مالية أكثر بكثير مما توفره نظيراتها الأمريكية، لتغطية

أبحاثهم وكل ما يحتاجون إليه.. وأكدت له ".. وبالذات لو اقتنعوا أن درجة الدكتوراه ستكون امتدادًا لدرجة الماجستير"..

شدت على يده وهو يهم بمغادرتها، مكررة.. " أوعي تنسي.. الوثائق هي اللي بتخلق المتخصص اللي الدنيا كلها تنحني له.. وأنت باجتهادك.. ممكن تكون واحد من دول "..

عاش ساعات طويلة يحلم بالحصول على منحة من جامعة أمريكية أو من غيرها.. وقال لنفسه.. "المهم أن تتحصل عليها.. ويكون مردودها المالي كافي وزيادة.. علشان تساعدك على المعايش.. "ولما اتسعت ابتسامته.." طاف بذهنه حلم إضافي يقول.. " ويا سلام يا أبو سليمان لو تشتهر بعدها.. وما يبقاش عندك وقت علشان تلبي الدعوات.. اللي ح تنزل على دماغك زي المطر.. للمشاركة في الندوات وورش العمل ومناقشة البحوث المستجدة ".. وقال بسعادة.. " الأهم من ده كله لو تعرض عليا إحدى الجامعات منصب أكاديمي رفيع بين أساتذتها ".

(١٤)

درَّب عقله على أن يُبعد نفسه عن حلم اليقظة هذا كلما أوشك على الغرق فيه حتى لا يتحول إلى كابوس لا يمكن الخلاص منه.. فجعل شغله الشاغل.. كيف يتحصل على العشرات من الوثائق التي هو في حاجة إليها ليس فقط لاستكمال رسالته.. ولكن لكي يضع قدمه على أول طريق الشهرة العلمية والعالمية !! عليه أن يبذل كل ما في وسعه ليجد الطريق الأنسب والأقصر الذي يوصله إلى هذه الغاية.. اقتنع أن وسيلته الوحيدة هي نقل كل ما يتحصل عليه من معلومات ودراسات وتعليقات على فلاشته كبيرة الحجم التي يطبق عليها بنواجزه.. بما في ذلك ما يحتفظ به أرشيف مكتبة معبد بن عزرا.

وثار في ذهن سؤال عويص.. كيف له أن ينقل وثائق هذا الكنز التي لا تقدر بثمن، والتي ليس في حوزة باحث غيره، إلى أرشيف الخاص؟

اعترف بأن عليه أن يزيد من ثقة العاملين به، فيه.. وأن يستفيد من إمكانات بعضهم التقنية تحت غطاء العمل البحثي الذي أصبحوا يعرفون

أنه يسعى من أجله لنيل درجة الماجستير ومن بعدها الدكتوراه، كنوع من المساعدة مقابل أجر.

اعترف بينه وبين نفسه أن العبء الأكبر سيقع على عاتقه.. صار على قناعة تامة – تزداد مع مرور الوقت – أن تصوير العدد الأكبر من الوثائق هو كلمة السر التي ستقوده إلى جنة الأكاديميين المتربعين على قمة العالم البحثية.. والتي ربما اقترب موعد انضمامه إليهم..

سرح في خياله.. كيف ستكون صورته في قادم الأيام؟ وكما درَّب نفسه على الطفو فوق السطح قبل أن يغرق في الحلم، أجل رسم أهم ملامح الصورة بعض الوقت إلى حين الانتهاء من مناقشة رسالة الماجستير التي أوشك علي الانتهاء من تحرير تصويبات فصلها الثالث التي نصحه به المشرف على العمل..

بإصرار وعزيمة، عاد إلى حياته اليومية.

تلقى من شكيب رسالة إلكترونية تقول: " أصل القاهرة مع عائلتي بعد غد.. حجزت للإقامة بفندق قريب من المتحف المصري.. سأتصل بك فور الانتهاء من الترتيبات الضرورية ".

فهم من الرسالة أن صديقه إنسان عملي.. يعتمد على نفسه.. يحرص على أن لا يشغل الآخرين بمطالبه.. وربما يكون ممن لديهم حلول لأي مشكلة يتعرض لها هو وأسرته..

ذهب هو إليهم.. زار معهم حي سيدنا الحسين ثم عرجوا إلى شارع المعز لدين الله الفاطمي.. وصليا في جامع عمرو بن العاص.. وتناول معهم طعام الغذاء.

خصص شكيب نهار اليوم التالي لزيارة المتحف المصري.. وفي المساء اصطحبه سليمان لجولة بوكالة الغوري لمشاهدة عرض للتنورة.. انبهر الضيف بالمشاهد التي تفرج عليها.. همس في أذن صاحبه " في الصباح عشنا ساعات مع حضارة مصر القديمة.. وفي المسا ها نحن نتمتع بفنها الرفيع ".. اكتفى سليمان بابتسامة اتسعت عندما شاهد سيرينا في مقدمة الصفوف تتابع العرض باهتمام.. كانت مفاجأة جعلته يسأل نفسه: هل هذا الاهتمام نابع من اهتمام بتاريخ الفن في مصر؟ أم للاقتراب من جذور المجتمع المصري..

لما حان وقت الاستراحة.. أدهشه أنها حرصت، رغم بعد المسافة بينهما، على تحيته في أثناء خروج الحضور من قاعة العرض إلى القاعة الرئيسية بعد انتهاء فقرات الفصل الأول.

اتجه مع صديقه وعائلته لتناول بعض المرطبات.. ولما مرت سيرينا بجانبه ابتسمت في وجهه ومدت يدها محيية.. وسألته: "جاي لوحدك؟ " أشار ناحية شكيب.. وهو يقول: " لأ.. مع صديق تعرفت عليه في الدير ".. لم تعلق.. سألها عن رأيها في العرض.. قالت بسعادة: "من اول شهر جيت فيه مصر.. ما فتنيش ولا عرض واحد اتعمل هنا.. شفت عروض أكثر من

رائعة بجد ".. ثم أضافت بثقة: " الوكالة دي كان لها دور عظيم في التبادل التجاري بين أوربا وشرق المتوسط، طوال سنوات العصور الوسطى ".

انتهى الحفل.. لما بلغوا المدخل الرئيسي للوكالة.. استوقفه شكيب.. ورجاه أن يلتقط له صورة سلفي مع أسرته.. لم يمانع.. رحب بالفكرة.. اصطفوا في منتصف الباب الضخم.. التقط شكيب أكثر من صورة.. شد انتباهه حرص الصغيرة على الإمساك بالدب بين يديها لكي يكون مواجهًا لموبيل والدها وهو يلتقط الصورة تلو الأخرى، من فرط تعلقها به.. كما لو كان يفهم القيمة التذكارية لهذه الصورة أمام مثل هذا الصرح العظيم..

صباح اليوم الثالث.. ذهب إلى الفندق لوداع صاحبه.. نزل شكيب مع زوجته وابنته.. وضع عامل الفندق الحقائق في سيارة الأجرة.. سلم على الزوجة وابنتها.. وابتسمت الصغيرة له وهو يربت على ظهرها.. احتضنه شكيب باعتزاز.. وقال له: " أكيد ربنا بيحبنا.. إننا اتعرفنا على زلمة متلك.. أصيل بكل معني الكلمة "، وأضاف والسعادة في عينيه.. "صدقني.. أنا باعتبرك من اليوم صاحبي وأخي"..

وافقه سليمان على رأيه.. وهو يقول: " طبعًا يا شكيب.. احنا إخوة.. والمحبة التي اتولدت في قلوبنا.. دي من عند الله "..

رد شكيب وهو يمنح عامل الفندق بعضًا من النقود في طريقه إلى باب السيارة المفتوح: " أي حاجة تريدها.. لا تتأخر في طلبها.. احنا صرنا أشقاء.. مو هيك ".. ردد سليمان: " طبعًا.. بكل تأكيد ".. ثم أشار له مودعًا والسيارة تتحرك في اتجاه مطار القاهرة..

(١٥)

كان يتصفح، كعادته من حين لآخر، صفحة أخبار هيئة اليونسكو بالفيس بوك.. لفت انتباهه انها ستشكل لجنة دولية متخصصة لإعادة تقييم الأماكن الأثرية التي أشارت إليها دراسة علمية أعدها باحثون من جامعة بولندية بالتعاون مع زملاء لهم من جامعة كندية حول " أهم محطات طرق التجارة البحرية والبرية بين الشرق والغرب فيما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر الميلادي "..

بادر بالاتصال بالجامعة الكندية بالقاهرة في ضوء توصية المسئول بالهيئة الدولية، لأجل مزيد من المعلومات حول هذا الموضوع.. شجعوه علي القدوم لزيارة مقرها لمزيد من التقارب..

استحسن الفكرة..

قاده أحدهم إلى قسم العلاقات العامة.. ملأ استمارة زائر.. طافوا به أقسام الجامعة ومكتبتها.. بعدها جلس بعض الوقت مع المشرف على

القسم.. الذي أهداه نسخة مغلفة من الأوراق التي جاء في طلبها.. وهو يقول له.. " أتمنى أن تجد في هذه الدراسة حاجة جديدة.. تنفعك وأنت بتضع اللمسات الأخيرة لرسالة الماجستير".. شكره بحرارة وهو ينصرف، ولما كرر عليه أن لا يتردد في الاتصال به إذا احتاج إلى أي مادة علمية من المكتبة.. وعده بتكرار الزيارة.

حمل الأوراق إلى أستاذه الذي أثنى على مجهوداته.. تناقشا معا في بعض محتوياتها.. خاصة وأنه وجد فيها عدد من الاستنتاجات التي تدعم بعض العناصر البحثية التي تناولها في فصلي رسالته الثاني والثالث.. وبالذات تلك التي تركز على العلاقة العضوية بين موانى إيطاليا من ناحية وموانى شرق المتوسط من ناحية ثانية وفي مقدمتها موانى الإسكندرية ودمياط والسويس.. فعمل على إضافة ما استنبطه منها، لتقوية بعض ما توصل إليه من نتائج جديدة..

(١٦)

استعد بكل همة ليوم مناقشة الرسالة..

كما توقع، لم يمر الأمر بسلام.. وبالذات من ناحية المشرف الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وحاوره فيها بلا كلل أو ملل.. جفف عرقة أكثر من مرة.. أمعن النظر عدة مرات في الأوراق التي أمامه، للإجابة عن ما طرح عليه من استفهامات وما أباده أعضاء لجنة المناقشة من تعليقات تناولت المحتوي العام، وكأنه يراها لأول مرة..

بعد أكثر من ثلاث ساعات، رفعت الجلسة لمناقشة قرار اللجنة النهائي..

شدت أسرته من عزمه.. ابتسم لهم تعبًا.. حياه بعض الأصدقاء.. بشره بعض الزملاء بالخير.. أقسم له أحدهم أن صورته ستزين عدد الصحيفة غدًا تحت عنوان يقول إنه حصل على الدرجة العلمية بتفوق..

جاءت لحظة الحسم..

عاد أعضاء اللجنة إلى مكانهم.. أعلن المشرف على الرسالة أنه فاز بالدرجة العلمية بتقدير امتياز.. وأن الرسالة ستطبع على نفقة الجامعة..

أحاط به المهنئون وفي مقدمتهم أسرته؛ أبوه وأمه وشقيقته وخطيبها.. ترنح تحت ضغط الأحضان الدافئة التي عبر بها الأصدقاء والزملاء عن سعادتهم لما بذله من جهد.. أحسَّ بخدر لذيذ في جسده كله، أنساه لحظات المعاناة التي لم يمضِ على وقوعه تحت وطأتها سوى دقائق..

في نفس المساء نشر أحدهم الخبر في صفحته على الفيس بوك.. نال الخبر متابعة العشرات من الأحبة.. وفي اليوم التالي اتسعت الصفحة لعشرات غيرهم من المهنئين خاصة المهتمين بهذه النوعية من الدراسات، وبالذات بعد أن نشرت صحيفة الجمهورية وبعض الصحف المصرية والعربية خبر حصوله على الدرجة العلمية.. كان من بينهم سيرينا وشكيب..

بعد أيام قليلة وصلته تهنئة من قسم العلاقات العامة بالجامعة الكندية بمناسبة نيله الدرجة العلمية بتفوق.. مرفقًا بها دعوة لمشاركة عدد من أساتذتها وطلاب الدراسات العليا بها، الاحتفاء به..

حول مائدة حفلت ببعض الأطعمة والأشربة دار بينه وبين عدد من الحضور نقاش علمي.. فهم أنه في مقدروه التقدم للحصول على منحة للدراسة في واحدة من الجامعات الكندية المتخصصة في مثل هذه الدراسات.. ولما أبدى ترحيبه بهذه الخطوة.. طلب منه نائب مدير الجامعة أن يُوافي إدارة

الدراسات العليا عن طريق البريد الإلكتروني بنسخة من خطة العمل التي أهَّلته لنيل الدرجة العلمية، مرفقًا بها ملخص للرسالة.

بعد أيام قليلة من إرسال الأوراق التي طلبت منه.. تلقي ترشيحًا من سيرينا للمشاركة في ورشة عمل بعنوان " دور تُجار دول البحر المتوسط في التقريب بين النظم السياسية خلال القرنين الثالث والرابع عشر".. كعضو بفريق بحثي يتكون من ياباني ونرويجي وبريطاني وسويسري وأمريكي.. تشرف عليه وتديره جامعة ألبرتا الكندية.. كنوع من المساهمة التي تقدمها المؤسسات البحثية البريطانية لدعم الدراسات العالمية التي تتمحور حول سبل إحياء طريق الحرير الذي كان يربط الصين بأوربا.

رحب من فوره..

تفرغ تمامًا منذ صباح اليوم الذي حُدد لعقد الورشة، لما هو مقبل عليه.. رتب أوراقه ومراجعه.. واختبر سماعة الأذن والميكروفون.. وشارك طوال الوقت الذي استغرقته، في مجرياتها بفاعلية وحماسة..

أدرك بعد غلق الدائرة التليفزيونية على أثر انتهاء السجالات الحوارية بين المشاركون، أن التجربة أفادته كثيرًا على مستوى متانة لغته الإنجليزية من ناحية وبراعته في البرهنة على وجهة نظره من ناحية ثانية، برغم أنها كانت الأولى.. وتمنى في نفسه أن لا تكون الأخيرة.

في اليوم التالي شكرته سيرينا كثيرًا.. وامتدحت أسلوبه الهادئ في النقاش والحوار غير المتعصب وإمساكه بعناصر العرض التاريخي بقوة يحسد عليها.. وتوقعت أن يكون مستقبل مشرف كمحاضر جامعي..

أحس أن الأرض تميد تحت قدميه سعادة..

دفعته لحظات إحساسه بالنشوة الذي غمرته بما حققه مؤخرًا من نجاح مع فريق عالمي حول موضوع تاريخي يعمل الطرف الصيني على إحيائه !! وبما سمعه من مديح صبَّته في أذنيه قامة علمية يُكن لها الكثير من التقدير العلمي والاحترام الأكاديمي، أن يتفرغ كُلية للانتهاء من إعداد خطة أبحاثه لنيل درجة الدكتوراه.

بعد أن استقر على شكلها الأخير.. بادر بالاتصال بعدد من الجامعات التي تهتم بدراسات العصور الوسطى والعلاقة بين المجتمعات الأوربية وغيرها.. وحركة التجارة بين البلدان المختلفة.. للتعرف على ما يمكن ان تقدمه له من منح دراسية في هذا الشأن.

(١٧)

بعد انتظار لم يطل..

جاءته رسالة إلكترونية من نائب مدير الجامعة الكندية تبلغه أن جامعة " ألبرتا " التي تعد واحدة من أقدم جامعات كندا، ترجوه أن يوافيها بأوراق خطته لنيل درجة الدكتوراه.. وبعث له بنموذج بيانات عليه أن يستوفيه، للنظر في مدى أحقيته في الفوز بمنحة في هذا الخصوص..

هذا ليس نموذجًا، هكذا قال لنفسه.. ده دفتر بيانات مكون مما يزيد على ستين صفحة.. تساءل عبر خواطره المهاجمة.. هل هو تحليل نفسي؟ ام سرد لوقائع حياته الأسرية والاجتماعية والتعليمية والعلمية؟ أم سرد لكل ما اعترضه من مشكلات وكيف تغلب عليها؟ أم بنية تحتية – لا بد منها – لتقييم مدى أحقيته في الفوز بالمنحة؟

لم يترك النموذج أي لمحة في حياته إلا وطلب منه استيفاءها.. بدءًا من المكان الذي ولد فيه وصولًا لتاريخ عائلته المرضي.. وقدراته البحثية

والمناهج العلمية التي يستعين بها لتحقيق افضل النتائج العلمية التي يتوصل إليها.. والوظائف التي شغلها.. والأبحاث التي نشرها.. وأين...؟

وجد مشقة كبيرة في استكمال كافة البيانات، ولكنه لم يترك أيًّا منها.. وعمل ما في وسعه لكيلا يخطأ أو يتجاوز الحقيقة على قدر الاستطاعة..

بعد ثلاثة أيام كاملة، رضيت نفسه عما حرره من إجابات ردًّا على ما طرحه عليه النموذج من أسئلة !! وما سجله من آراء !! وما وصف نفسه به من خصال.. وما لديه من قدرات ومهارات..

لم يَستشر أحدًا فيما رد به على ما جاء بالنموذج وقام بإرساله إلكترونيًّا..

حكى لأستاذه عن العرض الذي جاءه من الجامعة الكندية.. شجعه على القبول.. ونصحه ألا يُضيع وقته في انتظار الرد.. وأشار عليه " لازم تستثمر كل دقيقة في البحث عن وثائق جديدة تخدم خطة بحثك الجديدة.. وأن تسجل كل ما يخطر على ذهنك من ملاحظات أو يقع تحت يدك من معلومات جديدة "..

توقع أن يتلقى ردًّا فوريًّا على طلب المنحة، لكنه كان متسرعًا..

بدأ يسأل.. هل تراجع حلمه إلى الوراء قليلًا؟ لأنه لم يحصل على رد إيجابي من القاهرة أو أوتاوا في غضون أيام قليلة !! ولكنه حرص في نفس الوقت أن لا ينقلب حاله إلى الضد ويجلب على نفسه تعاسة وكآبة، قبل أوانها

من هنا ؛ تعمد أن يشغل نفسه أكثر بعمله في الصحيفة.. وأن يتتبع بجهد لا متناهٍ كل ما هو جديد في عالمه البحثي.. ومن هنا صرف جهده الأكبر في جمع أكبر عدد من الوثائق سواء عن طريق من تطوع لمعاونته أو ما يتمكن هو من الحصول عليه خلسة في بعض الأوقات..

في نهاية الأسبوع السادس من الانتظار الذي ظن أنه بلا نهاية، منذ أرسل بصفحات نموذجه الإلكتروني، أشرقت شاشة اللاب توب وهو يفتحه كعادته كل صباح قبل التوجه إلى مقر الصحيفة، برسالة تفيده بموافقة مجلس أمناء جامعة ألبرتا على تقديم منحة دراسية " له " مدتها عامين للتقدم لنيل درجة الدكتوراه.. وجاء في نص القرار أن عليه " استكمال الجوانب التي بدأها في رسالة الماجستير، بالتركيز على حركة التجارة في البحر المتوسط في ضوء مستجدات العلاقات الدولية حتى نهاية القرن السابع عشر".

فرح بالرسالة التي أنقذته من فقدان الأمل.. سرح بعض الوقت في المطلوب منه أكاديميًّا.. استصعب الأمر في البداية.. لكنه سرعان من استعاد عزيمته وعقله الباطن يردد " لا شيء مستحيل ".

هوَّن عليه أستاذه الأمر، وأكد له أن مجهوده لنيل درجة الماجستير يؤهله بجدارة لاستئناف البحث الجاد ضمن عنوان رسالة الدكتوراه الذي اقترحته الجامعة الكندية عليه.. ونصحه بالتركيز على جمع أكبر عدد من المصادر العلمية التي تغطي الفترة الزمنية من القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن

السابع عشر.. وأشار عليه أن يتفرغ بعض الوقت لفرز محتوياتها لكي يجدد خطته البحثية في ضوء المطلوب منه.

قالت له سيرينا: " ستجد العديد من المصادر التي تفتح لك الكثير من المسارات البحثية، في بحوث مكتبة الدير الخطية وما قام به البعض من تعليقات عليها ".. وأشارت عليه أن يراجع ما في حوزته، ثم يقرر ما إذا كان يحتاج لزيارة أخرى إلى هناك أم لا؟.

عمل بنصيحتها.. ثم حزم شجاعته وسافر، مستغلًّا عنصر الوقت..

شملته الطمأنينة منذ دخل المكتبة.. صرف كل وقته للوجود داخلها طوال ساعات النهار وجزء من الليل .. لم يهمل أي تسمية ما دام موضوعها يقترب من العناوين التي يبحث عنها.. ساعده عدد من الرهبان.. ووفروا له الاطلاع على فهارست كانت غائبة عنه.. شكر لهم صنيعهم.

جمع عددًا لا يحصي من عناوين الأبحاث والدراسات.. سجل كل شيء بالحروف المنطوقة والمكتوبة على لوحة الأي باد وشاشة اللاب توب.. استغني تمامًا عن الأوراق.. اكتشف كنزًا من المعلومات التي تبشر بأنه سيسير في طريقه البحثي بلا عقبات عويصة قد تعطله.. أو توقف اندفاعه البحثي وحماسته ولو لساعة.

قبل عودته بساعات.. هاتف شكيب.. وهو يمني النفس أن يكون موجودًا بشرم الشيخ أو بالقرب من ساحة الدير.. أبلغه أنه أمضى الثلاثة أيام الأخيرة بمكتبة الدير.. لما اقترح عليه أن يتقابلا قبل عودته إلى القاهرة في الغد.. اعتذر

له صاحبه أنه يباشر عمله، الذي ينتهي مع غروب نهار اليوم التالي .. بنقطة الحراسة المسئولة منه.. تواعدا على اللقاء بالقاهرة في فرصة قريبة.

قبل انتهاء المكالمة.. زفَّ إليه سليمان خبر حصوله على منحة دراسية من جامعة ألبرتا الكندية.. وأضاف: " فيه احتمال كبير قوي إني أسافر في إجازة أعياد الميلاد ".. بانت الفرحة في صوت صاحبه وهو يرد: " خير وبركة يا زلمة.. دي جامعة مشهورة منيح.. ولها سمعة طيبة كتير.. اخو مرتي الصغير يدرس فيها.. أشوفك قبل ما تسافر.. وأنا باوصل مرتي وابنتي للسفر إلى نيو جيرسي لزيارة جماعتها ".. تمنى سليمان أن يتمكن من ذلك.. وختم كلامه معه قائلًا: " سلام ".. ورد الآخر: " سلام أشوفك على خير.. وأضاف: " اوعي تسافر قبل ما أشوفك ".. رد سليمان: " أللي فيه الخير يعمله ربنا ".

بعث سليمان برقم حسابه البنكي إلى القسم المختص بالجامعة..

بعد أسبوع حولوا له مبلغ خمسة آلاف دولار أمريكي أو ما يوازي ربع قيمة المنحة المادية لتغطية تكاليف سفره، على أن يتحصل على المبلغ الباقي منها في شكل أقساط شهرية بعد وصوله إلى مقر الجامعة في أوتوا.. اقترحوا عليه في رسالة منفصلة أن ينتهز مناسبة إجازات أعياد الميلاد في كندا ويشد الرحال إلى هناك، حتى ينتهي من اجراءات التسجيل والإقامة خلال النصف الأول من شهر يناير التالي.. لكي يلحق بالثلث الثاني من العام الدراسي.. وأبلغوه أن تذكرة السفر ستكون بين يديه بعد أن يُرتب أموره ويخطرهم بالتاريخ الذي سيحدده لسفره من القاهرة.

(١٨)

وضع مبلغ ثلاثة آلاف دولار وديعة في حساب مستقل بالبنك.. وحول الألفي دولار الباقية إلى العملة المصرية.. اقتسم قيمتها مع شقيقته لمساعدتها في شراء ما تحتاج إليه قبل تحديد يوم عقد قرانها.. الذي وعدها أن يحضر خصيصى للقاهرة ليكون إلى جانبها وجانب والديها مهما كلفه ذلك.. ووظف النصف الثاني في شراء بعض الملابس المناسبة لشتاء أوتوا القارص..

توجه إلى إدارة التجنيد للحصول على إذن بالسفر..

ملأ استمارة بيانات ركزت على كيفية حصوله على المنحة، ولماذا اختار هذه الجامعة بالذات؟ وموضوع رسالة الدكتوراه؟ ومن أين سيتحصل على المراجع الخاصة به؟ وفي أي المدن الكندية سيقيم؟ والمدة التي سيمكثها هناك؟ ومن أين سينفق؟

بعد استيفاء البيانات كافة، قدمها للمكتب المختص.. فهم منهم أن عليه الانتظار بعض الوقت.. جلس في الكافيتريا اقل من ساعة، حتى سمع من

ينادي على اسمه.. قام واقفًا.. اصطحبه واحد من المجندين إلى مكتب ضابط مسئول..

استقبله بوجه باش.. مد يده بالتحية.. جلس أمام مكتبه.. نظر الضابط في الأوراق التي انتهى سليمان من كتابتها منذ دقائق.. بادره بالتهنئة بمناسبة الحصول عي المنحة.. واستفسر منه عن بعض الأمور الخاصة بالرسالة.. تمنى له التوفيق.. وعده أن يحصل على الموافقة بالسفر في غضون أسبوع أو عشرة أيام.. وطلب منه أن يرتب أموره اليومية لحضور دورة تخصصية تعقد من بداية الأسبوع التالي، لمن هم على وشك السفر إلى الخارج للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه.. قدم له مجموعة أوراق بها كل التفاصيل.. شكره سليمان وهو ينصرف.

داوم بانتظام على حضور برنامج الدورة الذي كان يستهلك جزءًا كبيرًا من ساعات الصباح وما بعد الظهر.. تمسك بهذا الالتزام في البداية خشية أن ينجم عن انصرافه عن فاعلياتها، تعطيل سفره جُملة وتفصيلًا.. ثم تحول هذا المنطق بعد اليوم الأول من بدايتها إلى رغبة أكيدة في تلقي مزيد من المعارف، لما لاحظه من ثقة غير مفرطة وتواضع جمٍّ، اتسم به رجال الأمن الذين تولوا إلقاء المحاضرات التثقيفية على المشاركين في الدورة، إلى جانب حرصهم علي تعريف المشاركين فيها على الكثير من جوانب حركة الحياة في داخل مصر وخارجها.. التي لم يكن هو ملمًّا بها ولم ترد تفاصيلها على خاطره يوم ما.

وجدهم باشين مبتسمين.. لا يرفضون طرح أي سؤال خاصة إذا كان ذا صلة بالأوضاع الداخلية.. لاحظ أنهم لم يمنعوا أي مداخلة، بشرط أن تكون منطقية نابعة من الواقع الذي يعيشه الناس.. صدرهم رحب إلى حد بعيد.. معلوماتهم غزيرة واطلاعاتهم ليس لها سقف.. أملهم في قدرات الشخصيات التي يحاضرونها كبير.. يعبرون بسلاسة عن أمنيتهم أن يوظف كل منهم معارفه الجديدة التي سيتحصل عليها بحكم احتكاكه بمجتمعات علمية ومجتمعية جديدة، لخدمة وطنه ومجتمعه بشكل عملي بعيد عن الشعارات الجوفاء!! ثقتهم بهم، لا حد لها حتى لو أخطأ أحدهم في حق نفسه.

حاضروهم في موضوعات شتى.. حدثوهم عن مسائل وقضايا وطنية على جانب كبير من الأهمية.. لفتوا نظرهم لمحاولات قد يتعرضون لها بهدف تجنيدهم.. ليس بالضرورة لنقل أسرار عسكرية أو للإضرار بمصالح وطنية عليا.. ولكن بغرض الابتزاز المادي والمعنوي.. ركزوا على أن التجنيد لا يتحقق فقط باستغلال خضوع المستهدف لعادات سيئة مثل تعاطي الخمور ولعب القمار والولع بالنساء، بل بسلوكيات أخري، حمد الله في نفسه أنه ليس خاضعًا لمثل هذه النزوات.. ومن ثم ليس قابلًا للإغواء عن طريق أي منها.

انتهت أيام الدورة التي خصص المشرفون عليها النصف الثاني من يومها الأخير لمزيد من التعارف؛ بتقديم المشروبات الدافئة والمثلجة للمشاركين

وطاقم المحاضرين.. توزعوا في القاعة.. يتحدثون في أمور شتى.. تقدم منه أحد المحاضرين الذين توثقت علاقته به بعد اليوم الثاني.. وأعطاه إذن السفر وتمنى له التوفيق والعودة السالمة.

سأله عن رأيه في الدروة وبرنامجها.. علق سليمان بانه شخصيًا استفاد منها إلى حد لم يكن يتوقعه قبل أن يأتي إلى هنا.. قدم له ورقة صغيرة مكتوبًا عليها رقم هاتف.. سارع سليمان بالسؤال: " إيه ده؟ ".. رد وعلى وجهه ابتسامة عريضة: " ده رقم تليفون تحفظه.. وبعدين تحرق الورقة ".كاد سليمان يقاطعه بسؤال.. أشار الضابط بيده أن أنصت: " تتصل عن طريقه لما تلاقي نفسك في مأزق ومش عارف تتصرف.. مأزق يعني كارثة تستشعر انها ستضر بك أو بالمصالح الوطنية.. وتطلب التحدث مع عمرو القاضي.. اللي هو أنا ".. وكرر وهو يشير بإصبعه.. " اوعى تنسى.. مأزق.. كارثة.. مصيبة سودة.. مش لعب عيال ".. هز سليمان رأسه مؤمِّنًا على فهمه واستيعابه لما سمعته أذناه..

تركه الضابط المسئول بعد أن شدَّ على يده متمنيًا له التوفيق.

(١٩)

لم يعد أمامه ما يعطله عن البدء في التوجه إلى حيث يقبع حلمه.. أبلغ نائب الجامعة الكندية في القاهرة أنه يرغب في السفر يوم ٢٤ ديسمبر.. وعده الرجل بعمل اللازم.. أصبح جاهزًا للسفر، احتياجاته كافة توافرت.. ملابسه الثقيلة اشتراها.. أهم كتبه ومراجعه وضعها على جنب.. أدواته التقنية التي سجل عليها عصارة أفكاره لا تفارقه.. أوراقه شديدة الأهمية جمعها في ملف واحد إلى جانب نسخة رسالة الماجستير المطبوعة.

أرَّقه التفكير في الأمور الأمنية التي سمع عنها مؤخرًا.. وشغلته الاحتياطات الاحترازية التي قال أكثر من محاضر أنها تتواصل ليل نهار لكشف أي علمية تهريب تعمل على إهدار أموال الدولة المصرية وتسلب المواطن تراثه وتاريخه.. واسترجع ما سمعه حول انها – أي الاحتياطات – تقف بالمرصاد لكل من تساوره نفسه أن يُقدم على فعل من هذا القبيل..

أصبح القلق الذي يلازمه في ليله ونهاره هو، أنه لم يعثر بعد على إجابة

قاطعة للسؤال الذي يكاد يحرمه الراحة النفسية، كيف يتسنى له اصطحاب " الفلاشة الأيقونة معه " دون أن يصفها البعض بأنها " محاولة من جانبه لتهريب وثائق ذات أهمية قصوى ".. بعد كل ما بذله من جهد وتعب.. وما حظي به من احترام وتقدير.. وما ينتظره من مستقبل مشرق..

طاف في ذهنه استفهام.. هل ينهار كل ذلك لأنه غير قادر على إخفاء فلاشة بحجم إصبعين تحمل في داخلها مستقبله العلمي ؛ لكي يستعين بها في استكمال أبحاثه الأكاديمية؟ أم أن هذا الانهيار وما سيلحق به من سين وجيم ونيابة أمن دولة وحكم بالسجن ربما من محكمة عسكرية، سيكون نتيجة مباشرة لعثور الأجهزة الأمنية عليها مهربة داخل ملابسه أو بين أوراقه؟

أصبح دورانه حول نفسه يزداد عنفا كلما اقترب موعد سفره.. مشكلته الوحيدة.. الفلاشة التي أودع فيها كنز وثائقه و روحه العلمية.. واستأمنها على مخزونه البحثي.. صور عليها أكثر من ٧٠٠ وثيقة كاملة المعالم.. وضع عليها كل الملاحظات والهوامش التي تعلق على معظمها.. كيف سيمر بها من مطار القاهرة؟ نسبة النجاح ٥٠ ٪ ونسبة الفشل مماثلة.. سمع خلال محاضرات الدورة التدريبية الكثير عن وسائل الكشف الحديثة التي تغوص في الأعماق بحثًا عن أي شيء وكل شيء.

كيف السبيل إلى الخروج بها، دون مشكلات مع السلطات المختصة؟

الخروج من المطار وهي في حوزته مغامرة، ربما تمر دون مشكلات.. وربما تجلب عليه المصائب !! " الإتنين قَد بعض ".. هكذا كان يحسبها كلما طرأت الفكرة على باله.. نهارًا أو ليلًا..

خفف من استمراره في قاع هذه الدوامة طوال الوقت، قرار شكيب أن يحضر إلى القاهرة لقضاء يومين قبل أن تسافر زوجته وابنتهما إلى ولاية نيوجيرسي على متن رحلة شركة مصر للطيران المتجهة إلى لندن ومنها بواسطة طائرة بان أمريكان إلى وجهتها الأخيرة.

(٢٠)

نزلوا في نفس الفندق الذي أقاموا به من قبل.. رتب لهم سليمان زيارة سريعة لقلعة صلاح الدين ومسجدها الشهير.. وأمضى معهم سهرة غنائية بساقية الصاوي، جلسوا بعدها لتناول العشاء بالقرب من النيل..

لم يكن على عادته.. كان حاضرًا معهم بنصف تفكير..

لا حظ شكيب تغيرًا ما على سليمان.. فرغم إقباله على مشاكسة عقيلة بعض الوقت.. إلا أنه – في رأيه – لم يكن مهضومًا كما تعرف عليه أول مرة.. ولم يكن منطلقًا على سجيته كما كان خلال الزيارة الأولى التي حضر فيها للقاهرة.. هون سليمان على ضيفه الأمر..

لما ألمح شكيب إلى احتمال أن يكون سبب الحالة التي هو عليها قرب سفره بعيدًا عن أسرته وبلده، لأول مرة.. نفى سليمان ذلك.. لم يقتنع شكيب بالنفي وواصل إلحاحه لمعرفة السبب.. قائلًا.. " يمكن أقدر أساعدك ".. اغتصب سليمان ابتسامة واهية وهو يرد " كل ما في الأمر.. إني لقيت نفسي

مرة واحدة.. مزنوق.. بين الشغل.. والاستعداد للسفر.. وتجميع الأوراق والمراجع.. والوقت مش مكفي.. هي دي الحكاية "..

هز شكيب رأسه كمن يرفض الرد التقليدي ممن يُصر على عدم الإفصاح عما بداخله.. وضع يده على كتف سليمان وهو يقول: " كل ده مو حقيقي لأنك معود على متل هذه ضغوط.. عيونك تقول إن ما يشغلك أكبر من ذلك بكثير ".. ثم أكمل وهو ينظر بعمق في عينيه " سرحانك الأمس واليوم بعيدًا عن المكان والصحبة.. يبرهن على أن المشكلة التي تعاني منها عويصة.. وهي في نظرك غير قابلة للحل "..

لما لم يرد سليمان من فوره.. اضاف شكيب " أنا يا زلمة عرفان بالناس.. وانا باقول لك هدا الحديت من باب العشم.. إحنا صرنا إخوة..احكي لي.. يمكن اقدر اساعدك !! ".. وأضاف.. " ولو ما بتريد.. هذا حقك.. ولن اغصب عليك "..

تمهل سليمان قليلًا.. قبل أن يقول له وهو يزفر هواء من أنفه وفمه " السفرية والرسالة كلها.. ممكن تتوقف أو تتلغي في غمضة عين ".. بان الفزع في عيون شكيب.. وتوتر صوته وهو يستعيذ من الشيطان الرجيم " ليش كفانا الله كل شر ".. وأضاف: " ما في مشكلة إلا ولها عند رب العرش حل ".. ثم أضاف وهو يبتسم في وجه سليمان: " احكي.. ابعد الحجر الثقيل عن قلبك.. وإن شاء الله ربنا ح يوفقنا سوا لحل يرضيك ".

بادله سليمان بشاشة بمثلها.. وحكى له عن مشكلته التي تؤرقه في نومه وصحوه لأنه لا يرى لها حلًّا.. وهو على يقين أنه لن يجد لها مخرجًا..

وأكمل وهو يكاد يبكي.. أنه ربما يضطر إلى إلغاء الرحلة والتنازل عن المنحة التي انتظرها فترة طويلة..

تأثر شكيب بمقولة صاحبه.. احتضنه وهو يقول: " يا زلمة.. ليش بتسوي في نفسك هيك.. ربك قادر على كل شيء.... فك عن نفسك.. احكي.. شاورني.. يمكن العبد لله يكون قادر على المشاركة في إزالة الغمة "..

مسح سليمان دموع عينيه.. شكر صديقة على محبته.. وقال له هامسًا: " بصراحة.. المراجع والوثائق اللي لازم أشتغل عليها في كندا.. أكثر من ٧٠٠ ملف.. صعب أطبعها على ورق.. واشيل معايا ٧٠ ملف وأنا مسافر" لم يمهله شكيب ورد من فوره " طبعًا ما بيصير تحمل معك ٧٠ ملف.. ولا حتى ٧٠ ورقة.. أمال السي يدهات والفلاشات عملوها ليش؟ "..

أجاب سليمان مدافعًا عن نفسه قلة الخبرة.. " علشان كده حفظتها على فلاشة كبيرة ".. ثم صمت.. بادره شكيب " وإيه المشكلة هنا.. خد الفلاشة معك " رد سليمان بصوت مبحوح " ح يكون صعب.. لأنه ممنوع ".. استفسر صاحبه باستغراب " ليش ".. رد صاحبنا بضيق " هو كده.. ما عنديش إجابة مقنعة ".. رد شكيب بعفوية " خلاص حاول تخفيها في تيابك.. او بين أدوات الحلاقة.. أو حتى في جواربك "..

قال سليمان " المشكلة مش في إخفائها.. المشكلة.. لو ضبطوها معايا.. ح أروح في سين وجيم.. وقضية.. ويمكن حكم بالسجن "..

كأنما استوعب شكيب حيرة صاحبه.. عاد بظهره إلى الوراء ليستريح في جلسته وهو يفكر في الأمر.. ظلا صامتين بعض الوقت..

عاد شكيب إلى الأمام مقتربًا بوجهه من وجه صاحبه.. " بسيطة.. مش انت ح تكون في أوتاوا مسا يوم ٢٤ ديسمبر " رد سليمان " أقول يا رب ".. أكمل الصديق " أن شاء الله.. ومراتي ح تمر على جماعتها في نيو جيرسي في نفس اليوم.. وأول يوم في العام الجديد.. تسافر إلى أوتاوا.. " رد سليمان: " إن شاء الله.. بس إيه علاقة ده باللي إحنا بنفكر فيه؟ "..

ابتسم شكيب وهو يشرح بيديه " إذا كنت مستأمنًا على الوثائق.. مرتي تاخدها معها.. ولما تعود إلى منزلنا بأوتاوا.. تتصل بك على الإيميل.. تتقابلوا وتعطيها لك.. وبالمرة تعرفك على شقيقها إللي بيدرس في ذات الجامعة.. أكيد انت ح تبقي محتاج لخبرته هنيك ".. قطب سليمان جبينه وهو يقول " واذا لقوا الفلاشة معاها.. يبقي عملنا لإيه؟ " أدرك شكيب صعوبة الموقف. صمت لثوانٍ.. مسح بيديه على رأسه.. ثم قال بثقة: " يبقى ما فيش ادامنا إلا الدب تاع عقيلة.. يأكل في بطنه الفلاشة.. ويعدي بها.. ويا دار ما دخلك شر "..

ساد السكون بين الرجلين.. كل يفكر في الموضوع من زاوية مختلفة..

بعد برهة.. بادر سليمان بالسؤال: " تفتكر ممكن نعمل كده.. وما حدش يكشف العملية " رد شكيب: " طبعًا.. أنا ح اثبت الفلاشة في علبة البطارية ياللي بتشغل الدبدوب.. وبحكم وضعية مرتي كزوجه لضابط في قوة السلام الدولية ومعها جواز سفر أممي.. الإجراءات في الغالب بتبقي مركزة على البحث عن الممنوعات.. متل المخدرات.. والدولارات المهربة.. والآثار.. وها الأشيا بالتحديد.. لكن لعبة اميرتنا المفضلة.. ما في مرة لفتت نظرهم.. ولما ح يحطوها مع الهاند باج للكشف.. ح يشوفوا الفلاشة وعلبة البطارية قطعة واحدة.. لا تلفت النظر.. "..

لم يقتنع سليمان بالفكرة من أول مرة.. حاور صاحبه كثيرًا.. لكن شكيب لم يتركه إلا بعد أن أقنعه بصوابها وسلامتها، وأنه ما من وسيلة غيرها للخروج من ورطته.. حتى قال له: " لو لسه مش مقتنع.. أنا ح أقول لك على فكرة منيحة "..

ركز سليمان اهتمامه فيما سيسمع.. وعلق ليريح نفسه: " أقول ".. ابتسم شكيب.. وهو يقول " اعمل نسخة من الفلاشة.. واحتفظ بيها في بيتك.. بحيث لو حصل أي مكروه للتانية اللي في بطن الدبدوب.. تصير انت ما خسرت شي ".

هز سليمان رأسه مستغربًا ما سمع.. وتساءل مستغربًا: " يعني عايزني أضحي باسرتك.. ع " لم يدعه شكيب يكمل.. قاطعه قائلًا " ما فيش

تضحية ولا شي من ها ياللي بيدور في راسك.. وبرغم هيك.. خليني أمشي معك للنهاية.. نفترض إنهم اكتشفوا الفلاشة.. إيش حيصير؟".. هم سليمان بالرد.. أسكته صاحبه بيده وهو يؤكد ".. ولا شي.. ح يصادروها.. ويتركوا مرتي تغادر المطار هيا وابنتها.. بعدها ح يحرروا تقرير بالواقعة لقيادتي.. ولما يسألوني.. ح اقول دي حيلة مكشوفة من السلطات المصرية للتحرش بقوات السلام العاملة في سيناء.. ويتقفل الملف على هيك كلام ".. نظر إليه سليمان بعمق.. ووعده بنسخ الفلاشة.. كما اتفقوا..

(٢١)

عاد سليمان إلى شقة والديه وهو غير مستقر على حال.

هل يوافق صاحبه على اقتراحه؟ أم يترك الفلاشة وراءه ويسافر؟

لو تركها عليه إذًا أن يركز شغله على المعلن من المراجع وما نشر حول الموضوع من تقارير ودراسات أولية؟

لو حصر نفسه ي هذه الخانة.. من المؤكد أن نتائج أبحاثه وخلاصاته العلمية ستأتي متواضعة للغاية.. وربما رفضت كتاباته التحليلية لمرات عدة.. وسيمضي سنتي المنحة دون إنجاز علمي يشار إليه بالبنان.. وينتهي به الأمر إلى الوضعية التي هو فيها الآن !!

وهناك الأسوأ.. طبعًا الجامعة ح تطالبه بسداد قيمة العشرين ألف دولار التي أنفقت على أبحاثه التي لم ترقَ إلى المستوى الأكاديمي المعترف به !! ومن أين له أن يردها؟

بعد صراع عنيف حول هذه النقطة.. حسم أمره..

(٢٢)

نسخ الفلاشة.. وأعطى صديقه إياها قبل يوم ٢٤ ديسمبر.. وشكره من أعماق قلبه على صنيعه الذي أنقذ به مستقبله العملي.. وكرر أكثر من مرة " مش عارف أشكرك إزاي.. " رد عليه شكيب.. " يا زلمة.. لا شكر بين الإخوة.. وأنا ما علمت إلا الواجب.. " بعد هذه الكلمات التي جلبت الدموع إلى عيني سليمان احتضن صاحبه.. وتمنى لأسرته سلامة الوصول..

(٢٣)

نام سليمان ليلته الأخيرة بالقاهرة نومًا متقطعًا.. كانت توقظه هواجس كلها تدور حول الخبيئة التي سيبتلعها الدبدوب.. مرة لأن سهيلة إعترفت أن الفلاشة تخصه، وترتب علي ذلك أن جاءت في الفجر قوات أمنية كبيرة للقبض عليه وصارت فضيحته مدوية.. ومرة لأنه راح في سبات عميق لم يفق منه إلا بعد إقلاع الطائرة، فصار يندب حظه.. وثالثة لأن الصغيرة عبثت في الدبدوب، وأخرجت الفلاشة من مكانها.. وصارت تمضغها حتى أفسدتها، ورأى نفسه يحاول منعها فلا يوفق..

بعد طول معاناه وتقلب في الفراش، نهض وهو يستعيذ من الشيطان.. توضأ وصلَّى ودعا الله كثيرًا.. وأعاد النظر في محتويات حقيبتيه الكبيرة والصغيرة.. وتأكد من استكمال شحن بطاريات اللاب توب والموبايل والـ أي باد.. وتيقن من وجود جواز السفر والرقم القومي ومكاتبات الجامعة الكندية.. وتذكرة السفر.. وتصريح شئون الضباط، في مكانها.. وأعاد عد الدولارات التي في حوزته..

سلم على والديه وشقيقته.. التي اتصل به خطيبها ليبلغه أنه في الطريق إليه.. استغرب والده توجهه إلى المطار في وقت مبكر وقبل موعد إقلاع طائرته بساعات طويلة.. هون عليه الأمر.. وهو يقول: " معلش يا حاج.. أخلص كل الإجراءات.. وأقعد في انتظار الطيارة.. بدل ما اروح على الحركرك.. واجري علشان ألحقها "..

ساعده خطيب شقيقته في إنزال الحقيبة الكبيرة وحمل هو الأخرى.. أطل عليه أفراد أسرته من شرفة الشقة.. سمعهم يتمنون له السلامة.. ويوصونه أن يطمئنهم عليه في اقرب فرصة ممكنة.. حياهم وركب إلى جانب صديقه.. وتحركت السيارة في الطريق إلى مطار القاهرة الدولي..

جلس في السيارة إلى جانب صديقه.. حاول أن يُفكر فيما هو ذاهب إليه.. بعد لحظات استعاد الكثير من الأحداث التي مر به منذ أشهر طويلة.. تحقيقاته حول الخبيئة.. وما فتحته عليه من علاقات توسعت حتى وفرت له المنحة الدراسية التي هو في طريقه إليها.. كان يستمع لخطيب شقيقته مرة وإلى ما يبثه راديو السيارة من موسيقا هادئة مرة.. ويسرح مرات عدة ملاحقًا خواطره المتداخلة كشريط السينما..

أخيرًا وصلا إلى بوابات دخول المسافرين.. تعاونا في إنزال الحقيبة.. احتضن صديقه مودعًا.. وأوصاه خيرًا بشقيقته ووالديه.. وطلب منه هذا الصاحب وهو يضاحكه ليُفرج عنه حالة الضيق التي رسمت ملامحها على

وجهه – مقلدًا فؤاد المهندس – ".. إبقى طمنهم على أحوالك أول بأول وحياة أبوك"..

حمل الحقيبة الصغيرة على كتفه.. وجر الأخرى وراءه.. قدم جواز السفر وتذكرة السفر إلى أمين الشرطة الواقف بمدخل الباب.. نظر فيها ثم نظر إليه وهو يقول.." لسه على طيارتك وقت طويل.. إيه اللي جابك بدري قوي كده؟ "..

رد عليه وهو يحاول اغتصاب ابتسامة باهتة.. "القلق وقلة النوم"..

قدم إليه الأمين أوراقه وهو يتمنى له التوفيق.. شكره.. وقال في نفسه وهو يتناولها منه.. بعد أن رسم ابتسامة باهتة على وجهه.. "لو تعرف إيه اللي مقلقني.. كنت صعبت عليك".

(٢٤)

اجتاز أمين الشرطة إلى الداخل وهو يسبح بحمد الله..

في منتصف الطريق.. وقبل أن يصل إلى الماكينة التي سيضع حقائبه فوقها لكي تكشف الأشعة عن محتوياتها.. لمح على الجانب الآخر، سهيلة تحمل ابنتها وهي تبذل ما في وسعها لكي تلحق بالعامل الذي يدفع أمامه حقائبها.. بحركة تلقائية نظر ناحية الباب الذي دخل منه.. شاهد على الرصيف الذي يفصل بين يمين الطريق المواجه لبوابات الدخول ويساره.. شكيب وهو يعانق سيرينا.. تساءل في نفسه.. إيه اللي جمع الشامي على المغربي؟

انتابته حالة من الذهول.. جلس على أول مقعد عثر عليه في طريقة.. حاول جمع شتات أفكاره المتضاربة.. تذكر انهما لم يتبادلا حتى التحية عندما أتى شكيب ليودعه بالقرب من سيارة الأتوبيس التي كانت تستعد للعودة بطلاب الجامعة الأمريكية للقاهرة بعد انتهاء زيارتهم الدير!! وهو على يقين أنه لما تقابل معها إبان فاعليات سهرة وكالة الغوري.. لم يلفت نظرها عندما أعلمها أنه ضيفه في هذه الأمسية..

إيه الحكاية إذًا؟ مستشرقة أمريكية وضابط كندي من قوة السلام.. ما الذي يجمع بينهما؟ وما نوعية المصلحة التي تربطهما؟

زفر هواء كثير من أنفه وفمه.. لما يجد إجابة شافية.. أعاد النظر ناحية المنفذ الذي دخلت منه سهيلة وابنتها إلى قلب منطقة ختم الجوازات.. لم يعثر لهما على أثر.. من المؤكد أنها كانت تستحث الخطى استجابة للنداء الأخير الذي كانوا ينادون به على ركاب الطائرة المصرية المتجهة إلى لندن.. أن يبادروا بالتوجه ناحية البوابة المخصصة لهذه الرحلة.. أدرك لماذا كانت تهرول بهذه الكيفية !!..

مَدَّ بصره ناحية الشارع مرة ثانية.. اكتشف أن شكيب غادر المكان.. وأن سيرينا ما زالت تتبادل النقاش مع واحد من مرافقيها.. حاول مرة ثانية إيجاد رابط بين الشخصيتين.. ولما لم يجد ما يشفي حيرته.. وقف في الطابور.. منتظرًا دوره لكي يضع حقائبه على ماكينة الكشف عما في باطنها.. دفع بكل ما كان يحمله إلى قلب الجهاز.. تلقفها من الناحية الأخرى بشكل آلي.. حمل كل أمتعته.. وسار في الطريق إلى منفذ طائرة شركة مصر للطيران المتجهة إلى فرانكفورت.. وجده مغلقًا.. أشار عليه أحد العمال أن يتخير لنفسه مقعدًا بالقرب من المكان.. وهو يقول له: "عشان قدامك حوالي ساعتين على بال ما يفتحوا".

شكره.. وقال في نفسه: فرصة للتفكير فيما شاهده منذ لحظات.

لم يجن من تفكيره المتواصل شيئًا يُذكر.. ماذا عساه أن يفعل؟

على الجانب الآخر من الصالة الواسعة التي كان يجلس في أحد أطرافها.. شاهد سيرينا وهي تدفع أمامها بسهولة ويسر حقيبة رباعية العجلات وتوالي النظر إلى منافذ شركة مصر للطيران.. حمد الله أنها لم تره.. اختفت خلف واحد من الأعمدة.. قال في نفسه.. لا بد أنها ذاهبة إلى بلدها لقضاء إجازة أعياد الميلاد..

هبطت على أم رأسه فكرة ظلامية.. تغيرت على أثرها معالم وجهه المتعبة وقام واقفًا .. تساءل مع نفسه بصوت خافت.. هل هذا معقول؟ هل من الممكن أن تكون هناك علاقة مُريبة بين شكيب وسيرينا؟ هل باعه شكيب لها؟ هل زعم أنه سيساعده " كأخ " لإخراج الفلاشة لحسابه من مصر، واستولى عليها لحساب سيرينا؟

أعاد الجلوس مرة أخرى.. احتار فيما يدور برأسه من أفكار.. قرَّر أن يتصل بعمرو القاضي الذي تلقَّى على يديه بعض محاضرات دورة المسافرين للخارج التي انتظم فيها منذ أسابيع قليلة.

أخرج تليفونه تذكر الرقم الذي يحفظه عن ظهر قلب.

سمع على الطرف الآخر من يقول: أيوه.. عرفه من صوته.. قال: "صباح الخير يا فندم.. أنا سليمان عبد المقصود.. كنت من المشا.. " قاطعه عمرو

قائلًا: أيوه يا سليمان أنا عرفتك من صوتك.. خير فيه إيه؟ ".. رد بلا وجل: " أنا في كارثة، حصلت لي مصبة سودة.. ومش عارف أعمل إيه"..

تَمهل عمرو لثوانٍ وهو يفكر بعمق.. ورد: " انت فين دلوقت؟ " أجاب سليمان بلهوجة: " في مطار القاهرة ".. تمالَكَ عمرو زمام أمره.. وسأل: " المطار الداخلي والدولي ". أجابه: " الدولي يا فندم.. الدولي ".. سأله ثانية: " فيني حته في المطار "..

روائيل عاموس..

ضابط مخابرات إسرائيلي.. يبلغ من العمر حوالي أربعين عامًا.. نشأ في كنف أسرة علمانية أصولها المبكرة هاجرت إلى إسرائيل من شرق أوربا.. صلته بالدين اليهودي طقوسية.. يمارس شعائره في المناسبات الدينية فقط.. وفي نفس الوقت يطبق تعاليمه على " الأغيار " بشكل صارم تحت شعار تعلمه منذ الصغر يقول: " كل ما يفعله اليهودي ضدهم، هو تكليف إلهي".

اختلط منذ سنوات منتصف عمره بكل فئات المجتمع.. قلبه لا يعرف الحب سوى لإسرائيل الفكرة والوطن.. لديه قناعه تامة بأنه متميز كثيرًا عن كل من يتعامل معهم أو يتزامل وإياهم في الفصل الدراسي أو في العمل.. تَكون لديه منذ بدأ وعيه يتشكل، اهتمام قوي بالسعي لمعرفة كل ما هو جديد في مجال دراسته أو دائرة عمله.. لذلك فضل الانخراط في التعليم المدني، لكي يبتعد قدر الاستطاعة عن التعليم الديني كرغبة والديه.

(٢)

منذ أن لاحظ أساتذته في الجامعة العبرية براعته في تطبيق معايير التحليل النفسي والسلوكي على أي شخصية تاريخية أو عامة أو درامية يُكلف بكتابة دراسة تحليلية عنها حتى لو كانت من بيئة غير شرق أوسطية، وحظي بتشجيعهم.. دأب على تَخيُر شخصية " حية " ممن يعيش بينهم لكي يُخضعها لمقاييس التحليل التي تعلمها.. وكثيرًا ما أثنى عليه معلموه لجملة النتائج التي توصل إليها.

نمت هذه البراعة لدية وتأصلت بجدارة كنتيجة مباشرة لدأبه الذي لا يَفتر للتعرف على كل ما هو جديد في مجال تحليل الشخصية العربية والمصرية على وجه الخصوص، وممارسة تطبيقها على عشرات النماذج التي قام بتحليلها من ناحية وحرصه على إبقاء مستويات تفاعله مع محيطة المجتمعي في قمتها دائمًا من ناحية ثانية.. وكان مصدر إلهامه في هذه وتلك، حرصه الشديد على متابعة الأعمال الدرامية العربية خاصة المصرية القديمة والحديثة على حد سواء.

هذه المقومات رشحته للعمل في جهاز الأمن الداخلي / الشاباك، الذي تخصص من خلال دوائره الأمنية في تحليل سلوكيات الكوادر الفلسطينية للإيقاع بها.. وعلى استغلال نفس المعايير في تجنيد ضعاف النفوس منهم.. ويَسرت له تدريب بعض معاونيه على تقمص المظاهر الخارجية للشخصية الفلسطينية أو الشامية حتى يتمكن من دسهم داخل الجماعات والمواقع المستهدفة لتنفيذ عمليات الجهاز شديدة القذارة.

تفوُّقه في مجال عمله هذا، سهل له الانتقال بعد سنتين إلى جهاز الموساد.. انضم إلى وحدة تَتبع سلوكيات كبار قادة حزب البعث السياسية والعسكرية في كل من العراق وسوريا.. كشف في موقعه الجديد عن قدرة كبيرة في حفظ مقوماتهم وملامحهم عن ظهر قلب..

بعد أشهر معدودة، أبان عن معرفة بالمجتمع اللبناني أكبر وأوسع.. مكَّنته – بعد تنكُّر وتغيير في بعض ملامح الوجه – من دخول بيروت عدة مرات، استطاع في واحدة منها أن يلتحق تحت اسم مستعار بدورة تثقيفية حول " سبل السلام بين لبنان وإسرائيل بعد عام ١٩٨٢ " قامت بتنظيمها الجامعة الأمريكية بالعاصمة اللبنانية قبل نهاية القرن الماضي، دون أن يَشك فيه منظموها أو يكشف ستره واحد ممن شاركوه برنامجها..

أكسبته المعارف النظرية والممارسات التطبيقية خبرة، جعلته يُفضل أن يؤدي عمله دائمًا من وراء ستار.. قلة قليلة تعرفه معرفة شخصية خارج

إطار الجهاز الذي يعمل به.. يُقبل على أداء ما يُكلف به كأنه يتعامل حبًّا أو إن شئت جنسًا مع من يهيم بها عشقًا.. يفكر دائمًا في ابتكار وسائل جديدة للاقتراب بخطي حثيثة ممن يُخطط للإيقاع بهم.. وعندما يدخل الهدف إلى " الكمين" الذي أعده له بعناية، يُقلبه بين يديه " كما سيخ الكباب " بحنكة ويمتصه على مهل ولا يبالي بما ينزفه من دماء.

(٣)

يمتلك شبكة علاقات عامة داخلية وعالمية متنوعة، تضم من هم في أدني السلم الاجتماعي ومن هم في ذروة هرمه.. تدرج في المناصب التحتية منذ انضم للخدمة في جهاز الموساد.. وتصاعد في سلمه الوظيفي والاحترافي بعد أن شارك في تأسيس وحدة " ملاحقة المبدعين العرب ".. التي أوصت لجنة خاصة من قيادات الجاهز، بتكوينها " لأن من تم الاستعانة بهم خلال العشر سنوات الأخيرة للنفاذ إلى داخل أوطانهم، كانوا من النفعيين وغير المؤهلين أساسًا للعمل المخابراتي ".. بالإضافة إلى أن العدد الأكبر من المبدعين غالبًا ما يكونون ثائرين ومعارضين – بحكم تكوينهم الفكري – لنظم الحكم الديكتاتورية..

اللجنة لم تُوصِ بتجنيدهم جواسيس على بلدانهم، بل بمساعدتهم على تسهيل تحقيق أهدافهم الإبداعية والمعرفية – التي ليس في وسعهم بلوغها داخل أوطانهم، بوسيلة أو بأخرى.. لكي يتم – من خلال هذه المساعدة – توظيف

قدراتهم وتوجيه طاقاتهم لخدمة سياسيات إسرائيل "بعيدًا عن أساليب التجنيد المخابراتية التي لا تلائم تركيبتهم العقلية والفكرية".

لما كُلف بالمشاركة في تشكيل وحدة خاصة لتتبع المصرين.. كانت سعادته بالغة.. لأنه يعرف الكثير من ملامح مجتمعهم، قرأ معظم إنتاجهم الأدبي وكذا الكتابات النقدية التي تعرضت لفنونهم بصفة عامة، بالإضافة غالبية الدراسات التي نُشرت عنهم وعن رموزهم الفنية في كل قطاع إبداعي، ومتعمق في متابعة شئونهم وما يَلحق بها من تطورات إيجابية وسلبية على مدار الساعة منذ سنوات.. وكانت له آراء صائبة إلى حد كبير في التنبُّؤ ببعض مجريات أمورهم.

(٤)

تعرف روائيل إلى الصحفي والباحث المصري سليمان عبد المقصود لأول مرة في ضوء ما ورد عنه في تقارير أعدها قسم العلاقات المجتمعية بسفارة بلدة بالقاهرة، حول مساهمته الفعالة في ندوة عقدت بمركز الدراسات الإسرائيلية بجامعة عين شمس، ببحث علمي حول الديانة اليهودية وكيف أنها معادية لعنصرية دولة إسرائيل.

لعنه في سره هو ومن عَلمه، بسبب هذا العنوان الذي يكشف عن عقلية غير متعاطفة مع إسرائيل بالمرة.. ولما عرف أنه مسئول عن تحرير الأخبار التي ترد في الصحف ووسائل الإعلام الإسرائيلية بصحفية الجمهورية، طلب من مساعدوه أن يوافوه بقصاصات مما ينشره على مدار الأسبوع..

قرر أن يهتم به، لحين إجراء تقييمٍ شامل له..

بعد قراءة مستفيضة لما تحصل عليه من كتاباته المنشورة، ثبت لديه أنه يُتقن اللغة العبرية وعلى دراية إلى حدٍّ كبير بمجريات الأمور السياسية

والمجتمعية والثقافية داخل إسرائيل ويركز في متابعاته على علاقة دولة إسرائيل بالمنظمات الفلسطينية، كان رد فعله كونه ضابط مخابرات محترفًا.. أن أضاف اسمه إلى مجموعة الشخصيات التي يجب الاهتمام بها.. ومن ثم أفرد له صفحة مميزة داخل أرشيفه الخاص.. من خلال ما ورد عنه في تقرير سفارة بلده بمناسبة ما نشره من تغطيات وتحقيقات صحفية ومداخلات إعلامية حول خبيئة الجنيزة..

لفت نظره دقته في التحليل.. وحرصه على التغطية المتكاملة.. وإصراره على استكمال جوانب ما يكتب عنه بكل مهنية.. لذلك، أضاف الفقرة التالية إلى الصفحة الخاصة به " يتمتع بإمكانات فكرية ومهارات بحثية ملحوظة.. ولديه قدرة عالية على الاستنتاج، وعداوته لإسرائيل لا تخطئها العين الفاحصة "..

كلَّف أحدهم بأن يوافيه فورًا بكل ما يُنشر عن موضوع الجنيزة في الإعلام المصري.. أصله وفصله.. وأن يسارع بشراء أي كتب أو أبحاث تتناول هذا الموضوع، خاصة إذا كانت أكاديمية..

عرف من جُملة ما تحصل عليه أن مئات المُحرَّرات الدينية والاقتصادية والتجارية والإنسانية التي عثر عليها في معبد ابن عزرا بمدينة الفسطاط وفي مقابر اليهود بحوش موصيري بمنطقة البساتين، تعد من وجهة نظر المتخصصين أهم ما أزيح عنه الستار منذ اكتشاف الخبيئة الأولى بمصر عام ١٨٩٧..

وقال في نفسه.. ما دام الأمر يتعلق " بتراث " مصريين يهود كانوا عايشين في مصر حتى منتصف القرن العشرين وسابوها وهاجروا.. وكانوا يتعاملون مع كافة شرائح المجتمع ويتفاعلون مع كل ما يمر به من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية وحتى ثقافية.. تراث خبَّؤوه بأنفسهم في مقابرهم.. إذًا فنحن أولى بها من مصر وكل أهلها !! لأنها لا تخصهم.. وعلينا أن نتحصل عليها بأي وسيلة.. عشان هيا جزء من تاريخنا وتراثنا إحنا مش هما.

(٥)

منذ ذلك الحين أصبح الهاجس الذي لا يفارقه ليل نهار، هو كيف السبيل لجلب هذا التراث الأصيل إلى إسرائيل؟

من ناحية أخرى.. اقترح – في اتصال هاتفي – على المستشرقة الأمريكية سيرينا جولدن شتاين الأستاذة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، أن توجه إلى سليمان الدعوة، في أقرب فرصة ممكنة، لحضور محاضرتها التالية، وأن تعمل على التقرب منه.. وأضاف محفزًا: "علشان نعرف إن كان لديه اهتمامات علمية أم لا".

توسَّع كاتب التقارير الإسرائيلي من القاهرة في الكتابة عن صاحبنا.. وأضفى عليه من الملاحظات التحليلية والسلوكيات البشرية ما أثلج صدر روائيل لسببين.. أن توقعاته بالنسبة لسليمان تسير في طريق تصاعدي.. وأنه يبدو ممن تشغلهم المعرفة والبحث، عن كل شيء آخر يدور من حولهم.

كتب على الكارت الخاص بسليمان، بعد أن قرأ الملاحظات بتمعن " نقطة ضعفه هي العلم، بحثه عن كل جديد لا يَفتر، نهمه إلى المعرفة طاغٍ، وربما يكون قاتلًا "..

وطرح عليه تفكيره التآمري سؤالًا افتراضيًّا.. إن لم نتمكن من تجنيده لخدمتنا – وهذا وارد – هل يمكن استغلال قدراته البحثية والمعرفية عن بُعد لخدمة هدف الحصول على هذه الوثائق، سعيًا لإضافتها إلى الأرشيف القومي لدولة إسرائيل؟

أحس روائيل بأنه يقترب من معرفة المزيد عن أبعاد شخصية سليمان.. لما عرف أنه استمع لنصيحة سيرينا وسارع بالانضمام إلى جماعة أصدقاء الجامعة الأمريكية، ورحَّب في نفس الوقت بالسفر معهم لزيارة دير سانت كاترين.. وكتب في الصفحة الخاصة به " يمكن قيادته عن طريق الإيعاز له بتوافر معلومات تهمه، إلى هدف محدد عن طريق قناعاته العلمية ".. لذلك كلف صديقه شكيب بن حيدرة الضابط الكندي بقوة السلام الدولية المرابطة في شمال سيناء أن يتصل بالمستشرقة جولدن شتاين ليعرف منها على وجه التحديد توقيتات رحلة طلبة الجامعة الأمريكية إلى دير سانت كاترين.. وأن يرتب لقضاء زيارة سياحية لشرم الشيخ مع أسرته، تتيح له القيام برحلة قصيرة إلى دير سانت كاترين.. وقال له: " هناك.. مطلوب منك أنك تتعرف عن قرب على شاب مصري، ح تشاور لك عليه سيرينا.. تراقبه عن قرب

وتلاحظ سلوكياته وتُقيم تصرفاته منيح، وتكتب عنه تقرير مفصل.. وبعدين تتعرف عليه وجهًا لوجه.. وتصاحبه "..

سافر الجميع إلى دير سانت كاترين ما عدا روائيل الذي دأب بانتظام على قراءة ملخص للمقالات التي يكتبها سليمان عن معالم دير سانت كاترين خاصة ما حكاه عن تاريخ لوحة التجلي ومكانتها العالمية والدينية وكذا أسطورة شجرة العليقة الملتهبة..

ولما تلقى رسالة على بريده الإلكتروني حول انطباعات شكيب عنه بعد تتبعه كظله والتعرف عليه وجهًا لوجه مرة والحرص على وداعه لتأكيد مدى الصداقة وعمقها التي ولدت بينهما، مرفقًا بها صورة للكارت الشخصي لسليمان.. بدأ في رسم صورة تحليلية وسلوكية له..

(٦)

بعد عدة أسابيع..

زاد يقينه أنه يقترب بخطى حثيثة أكثر وأكثر من معرفة المزيد من الجوانب الشخصية لسليمان.. وعليه أن يُدقق – من الآن فصاعدًا في سلوكياته باعتباره " هدف " لم يحدد بعد كيف سيوظفه لخدمة طموحاته دعمًا لنشاطات الوحدة المخابراتية التي يعمل لحسابها !!..

ولما أمدته سيرينا بملخص لرسالة الماجستير التي ينوي التقدم للحصول عليها.. وزع اهتماماه بهذا "الهدف" على مستويين.. طلب من سيرينا أن تعمل ما في طاقتها لإقناعه بالسفر للخارج لكي يحظى بمكانة متميزة خارج مصر.. وأن تركز بصفة خاصة على جزئية وثائق الجنيزة ومدى أهميتها لاستكمال التحضير لرسالة الدكتوراه بعد اجتياز عتبة الماجستير..

في نفس الوقت.. دفع شكيب للسفر إلى القاهرة هو أسرته للقيام برحلة سياحية يكون سليمان دليلهم فيها.. وأكد عليه أن ينتهز أنسب الفرص لالتقاط صورة سلفي مع سليمان، دون أن يلفت انتباهه..

قرأ باهتمام ما كتبته سيرينا.. وأمسك بصورة شكيب وعائلته مع سليمان أمام مبنى وكالة الغوري.. ودقق فيها النظر.. وقارن فيما بعد بينها وبين ما

نُشر له من صور فوق صفحات الجرائد والمجلات المصرية بمناسبة حصوله على درجة الماجستير بامتياز.. واستشف من ملامحه أنه ليس من هؤلاء الفتية المستعدين للمقامرة بمستقبلهم العلمي لأي سبب من الأسباب..

وكتب في حينه الملاحظة التالية: " لا بد من استكشاف طريقة موائمة لمساعدته على التقدم سريعًا إلى الأمام في مسار حياته العملية، بشرط أن تَصب نتائجها في نهاية المطاف في مصلحة شعب إسرائيل "..

أدرك روائيل، أن تحليله " لنموذج " شخصية سليمان، قريب من الحقيقة بنسبة كبيرة، من قبل أن تنتهي متابعته لورشة العمل الدولية التي دعت سيرينا صاحبنا للمشاركة فيها مع خمسة آخرين من جنسيات مختلفة.. لاحظ عليه.. أنه ممن يستعدون بطاقة إيجابية عالية لما هو مقبل عليه من عمل فردي أو جماعي.. ويحرص على تدوين ملاحظات للتعليق على ما يدلي به الآخرون من آراء أو تعليقات.. ويتميز بدقة في تعليقاته التي غالبًا ما يؤسسها على حقائق علمية أو آراء يعرف جيدًا مصادرها..

لهذا، شدد على شكيب أكثر من مرة أن يستجيب لأي مطلب يطرحه سليمان عليه في أثناء زيارته القادمة للقاهرة.. ولما تفكه هذا الأخير وردد ضاحكًا: " أي طلب.. أي طلب ".. رد عليه: " أيوه يا ظريف أي طلب.. وانت عارف أنا أقصد إيه ".. أجاب شكيب: "حاضر سيدي..ع راسي من فوق ".. وقبل أن تنتهي مكالمتهما.. كرر روائيل.. " حتى لو عملت بلياتشو علشان تساعده في حل أي مشكلة.. مش خسارة فيه.. مفهوم؟ "

(٧)

أثنى رؤائيل على حسن تصرف شكيب بعد أن وصلته منه رسالة إلكترونية تحمل كلماتها ملخصًا وافيًا لزيارته للقاهرة.. ومقابلته مع سليمان التي انتهت باتفاق أن ينسخ فلاشة الوثائق التي تُنغص عليه حياته، ثم يعطيه إياها لكي يضعها في قلب العروسة الدب التي لا تفارق ذراعي ابنته.. وقبل ان يُبلغه روائيل أنه قرر منحه مكافأته " سخية " مقابل ما بذله من جهد سيسهل له قريبًا أن يضع كنز وثائق الجنيزة بين يديه.. أوصاه أن يخبئ الفلاشة بحرص بالغ في داخل صندوق بطارية الدب، دون أن يُعلم سهيلة زوجته، بما أقدم عليه خلسة، مهما كانت الأسباب.. أو أن يُلَمح بما جرى من اتفاق بينه وبين سليمان في هذا الخصوص، لسيرينا..

وعده شكيب بطاعة كلا الأمرين، دون تعليق..

بعد أيام قليلة.. كتب شكيب لروائيل.. " انتهيت من نسخ الفلاشة ".. تحب ما نحطهاش في قلب الدبدوب.. واجيبها معايا وأنا راجع للجورة؟

".. نهره روائيل بشدة.. ووصفه بالأرعن.. وكتب له في رده على رسالته.. " أنا لو عايز الفلاشة يا بني آدم.. كنت طلبت منك انك تكذب على سليمان.. وتجيبها لي معاك وانت راجع لمقر قيادتك ".. وأضاف: "بطل تقدم اقتراحات إلا لما أطلب منك.. مفهوم " رد شكيب: "حاضر سيدي".

وختم الرسالة قائلًا: "بعد ما ترجع الجورة.. نبقى نتكلم على راحتنا ".. وكرر مشددًا.. " اوعي سهيلة تعرف بالموضوع ده بأي شكل من الأشكال.. واعي للي أنا بأقوله؟ ".. عقب شكيب: " حاضر سيدي "..

(٨)

اتصل روائيل بسيرينا.. وقال لها: " أنا عايزك بعد ما تقضي إجازة أعياد الميلاد مع الأسرة في بولندا.. تسافري إلى نيوجيرسي قبل نهاية السنة.. علشان ح أكلفك بعملية ما جتش على بالك ولا في الأحلام !!.. ح تفرحك كتير قوي ".. ولما حاولت أن تعرف منه طبيعة هذه المهمة.. لم يزد عن القول: " كنز عمرنا ما كنا نحلم إنه يبقي بتاعنا "..

صمتت على مضض.. وكلفت قسم العلاقات العامة بالجامعة أن يستكمل لها تذكرة السفر من القاهرة إلى وارسو بتذكرة مكملة تحملها من وارسو إلى نيوجيرسي..

حرص روائيل مساء يوم ٢٣ ديسمبر أن يُخفف من مقابلات وارتباطات اليوم التالي على قدر استطاعة، حتى يتفرغ لمتابعة المغادرين من مطار القاهرة الدولي إلى ثلاث مدن تقع كلها عند أطراف أصابعه..

(٩)

صباح يوم ٢٤ ديسمبر.. طمأنه شكيب أن سهيلة أنهت إجراءات سفرها.. وأنها اتصلت به أول مرة من داخل صالة انتظار صعود الركاب إلى متن الطائرة.. والثانية قبل ثوانٍ معدودة من إقلاع الرحلة رقم ٧٧٩ المتجهة إلى العاصمة البريطانية..

استراح قلبه.. الدبدوب ووجبته الدسمة في السماء الآن.. وقريبًا تقع بين يديه نسخة من وثائق الجنيزة التي طالما حلم وخطط منذ قرأ عنها أن تمتلكها إسرائيل، لأنها في رأيه المالك الأصلي والوحيد لها..

هاني إبراهيم عقل..

هكذا يُحب أن يَكتب اسمه.. وأن يوقع به على الأوراق الرسمية وغير الرسمية كافة.. وأن يُخاطب به كلما كان ذلك ميسرًا، سواء بالعربية أو بأي لغة أخرى.. وذلك محبة في أبيه في حياته وبعد مماته، واعترافًا منه بفضله عليه منذ سنوات عمره الأولى..

(٢)

كان الأب إبراهيم عقل رجلًا عسكريًّا، يحمل بين ضلوعه قلب " يتسع للناس كلها " هكذا كان يراه كل من اقترب منه.. اشتهر بقوة صلته بعائلته وجيرانه والعاملين معه.. خدم القوات المسلحة المصرية بكل إخلاص وتفانٍ طوال حياته، حتى أُحيل إلى التقاعد برتبة لواء.. حظي بما هو أهل له من تقدير واحترام من كل القيادات التي عمل تحت رئاستها وممن خدموا معه.. وتبوَّأ مكانته الهندسية التي يستحقها بكل جدارة واستحقاق..

هل ورث هاني عشق الهندسة كعلم من أبيه وجده؟ ربما.

جده كان معماريًّا مرموقًا على مستوى مدينة الإسكندرية.. ساهم في التخطيط للكثير من ميادينها وعمائرها.. وشارك في الإشراف على ترميم العديد من معالمها الأثرية القديمة والحديثة.. وخدم أبوه بالقوات المسلحة منذ تخرجه في الكلية البحرية، بكل تفانٍ حتى ذاع صيته بين الأساطيل العربية والأوربية..

الهندسة والعلم كانا يتنفسان في منزل عائلة هاني كما تتنفس النباتات الطبيعية التي كانت تضفي ظلالها على كل ركن في البيت الكبير..

تفتحت عينا هاني على نمط حياة " مُتهندس " من أوله لآخره، كما كانت تقول جدته لأبيه.. تدربت أصابعه الصغيرة على الفك والتركيب منذ علمه أبوه كيف يمسك بالمفك ليعيد تركيب عجلة سيارة " الماتش بوكس " التي انفصلت عن جسمها.. أو ليُحكم إغلاق باب أخرى.. أو ليتيقن من عودة سائق سيارة أخرى إلي مكانه على أثر اصطدامه بحائط حجرته في واحد من السباقات لمجنونة التي كان يتخيل تنظيمها طوال أيام إجازته المدرسية..

حملت جدران حجرته المقابلة لسريره، قبل أن يبدأ دارسته الجامعية عشرات الصور لسيارات من طرازات مختلفة.. أما الحائط المقابل لمكتبه، فخصصه لسيارات السباق العالمية.. وطوال عامه الجامعي الأخير، جمع في ملف مستقل صورًا لرسومات ومكونات محركات أشهر هذه السيارات وتواريخ تطوريها.. وأسماء الشركات التي تقوم بتصنيعها وترتيب كل منها على مستوى العالم.. وما تتميز به كل واحدة منها عن الأخري..

(٣)

يقف هاني، بأقدام ثابتة عند منتصف العقد الرابع من عمره.. أفضل ما يحب أن يوصف به.. أنه أمضى هذه السنوات منذ أن تخرج في كلية الهندسة جامعة الإسكندرية.. قسم هندسة السيارات.. في عمل مهني يملأ عليه حياته.. ويضفي عليه رضًا واستقرارًا يحمد الرب عليه.. لم يأتِ تخصصه في هذا المجال عشوائيًّا.. بل كان تحقيقاً لحلمه الذي تعايش معه أيام وليالي لا تعد ولا تحصى.. وهواؤه الذي تنفسه طوال سنوات دراسته الجامعية جعله يبدو دائمًا متصالحًا مع ذاته في معظم الأحوال، وصار فيما بعد مناط عمله منذ أتى إلى لندن بعد تخرجه بأشهر قليلة..

(٤)

قدومه إلى لندن لم يلاقِ عقبات.. فهو إلى جانب أنه وحيد والديه، فاز بالمركز الأول على مستوى مسابقة أوربية لخريجي جامعات الشرق الأوسط في مجال هندسة السيارات، ركزت على كيفية زيادة عوامل الأمان لسيارات النقل العملاقة التي تسير فوق الطرق التي تربط بين دول شرق وغرب أوربا لتلافي الحوادث التي تتعرض لها.. لم يصدق أحد من عائلته، إن هذا الفوز فتح له الباب للالتحاق بمجموعة الدراسات المتخصصة بجامعة لندن للعلوم والتكنولوجيا..

فيما بعد صدقوا أن ألمعيته وتفانيه في دراسته اللندنية جعلته يحتكر مقعد المقدمة منذ إجتاز بتفوق برامج الفصل الدراسي الأول للمجموعة، مما أهَّله لاحتلال منصب المساعد الأول لكبير مستشاري المجموعة فور انتهاء البرامج التطبيقية التي أمضى فيها عامًا دراسيًّا كاملًا..

لم يستمر طويلًا في مواصلة العمل بالمجموعة البحثية.. سبقته سمعته العلمية وما حققه فريقه من نتائج على مستوى تطوير أداء محركات سيارات السباق، لأن تسعى الشركات المنتجة لهذه النوعية من المركبات لإغرائه بالانتقال للعمل بها عن طريق المرتب السنوي المجزي والمكانة الوظيفية التي سيحظى بها طوال مستقبله..

(٥)

تعرف إلى المستشار عمرو القاضي بعد انتقاله للعمل بطاقم السفارة المصرية بالعاصمة البريطانية بفترة قليلة.. جمعهما حبهما الشديد لسيارات السباقات والسعي الدؤوب للتعرف على آخر طرازاتها.. وكل ما يلحق بها من تحديث في مجال تطويرها من حيث السرعة القصوى والقدرة على توقيف اندفاعاتها التسابقية خلال ثوانٍ معدودة.. وحجم اعتمادها على التقنيات بالغة الحداثة.. ومدى التنافس غير الحضاري الذي لا يتوقف ليل نهار بين مراكز إنتاجها العالمية..

تقابلا لأول مرة بمعرض برمينجهام لسيارات السباق الذي أقيم بمناسبة مرور ٥٠ عامًا على تصنيع أول سيارة من هذا النوع .. قرأ عمرو اسمه فوق صفحات كتيبات الدعاية التي يوزعها المشرفون على المعرض.. هاني إبراهيم عقل / متخرج من جامعة الإسكندرية..

بعيدًا عن هذا التعريف.. نطقت سحنته وتقاطيع وجهه واستخدامه يديه في التعبير عما يقول.. إنه مصري قلبًا وقالبًا.. لفت نظره جسمه الممتلئ بتناسق وقامته المرفوعة.. واستعداده للرد على أي سؤال.. وقفشاته التي يغذي بها بعض ردوده الساخرة.. ولمعان عينيه كلما أجاب بغزارة ويسر عن مدى التطور الذي حققه فريق المتخصصين الذي يقوده على مستوى تقنيات التواصل بين قائد السيارة المتسابقة ومجموعة الفنيين التي توفر له ما يحتاجه من خدمات على الجانب الآخر من الطريق..

أحس عمرو القاضي، أنه علي وشك التعرف إلي شخصية تعتز إلي أبعد مدى بمصريتها..

ولم يخب تقديره..

عرَّفه بنفسه كما سمع آخرين يفعلون.. وطرح عليه سؤاله حول مدى قدرة إطارات السيارات على التحمل.. وتعمد أن يناقشه في تفاصيل جانبية بهدف لفت نظره إلى أنه قارئ هاوٍ في مجال هذا التخصص..

اقترب منه عمرو بعد أن أنهى هاني إجابته.. قدم له كارته الشخصي.. وهو يقول له: " أنا ح اقضي بقية النهار اتفرج على الأجنحة التانية.. يا ترى عندك وقت نشرب حاجة منعشة سوا "..

رد هاني وهو يقدم إليه هو أيضًا الكارت الشخصي الخاص به: "ممكن بعد ما اخلص العرض ده.. فاضل له خمس دقائق بالضبط.. ".. رفع عمرو إبهام كفه اليمنى موافقًا.. انتظره عند حافة ساحة العرض التي كان يقف في وسطها.. تبادلا السلام بالأيدي مع كلمات الترحيب المناسبة.. قاده هاني إلى مكان مخصص لتناول المشروبات.. وبادره: " أنا المرة دي اللي عازمك.. وما تقليش أنا اللي اقترحت.. علشان مش ح ينفع.. إنت ضيفي "..

اتسعت عينا عمرو إعجابًا.. أو اندهاشًا.. أو تقديرًا.. لما أزاحه هذا الواقف أمامه من عقبات كان يتوقعها، لكي يوثق علاقته به.. أو كل ذلك معًا.

جلسا متقابلين.. بعد أن ابتاع هاني لنفسه كوبًا من عصير الليمون ولضيفة كوب من عصير الفراولة بناء على طلبه.. سبقه عمرو بالسؤال: " يا باشمهندس.. أنت.. ". لم يتركه هاني يكمل وأشار له بيده.. " حلمك عليا.. من اللحظة دي.. ما فيش بينا مهندس ولا أستاذ ولا سيادة المستشار.. أنا اسمي هاني وأنت اسمك عمرو.. وإذا كنت مش واخد أن حد من المصريين يناديك من غير باشا ولا بيه.. ده يبقى وضع تاني.. قلت إيه؟

اندهش عمرو من مقولة الجالس أمامه.. وربت على يده القريبة منه وهو يقول: " بالعكس.. لو ما كنتش قلت كده.. كنت أنا ح أقوله.. استبينا ".. علق هاني مبتسمًا: " استبينا "..

تبادلا حديثاً متشعب الأطراف.. شمل الكثير من الأسئلة والإجابات المعتادة بين أي شخصين يتقابلان لأول مرة.. ويفتحان بابًا للتعارف بينهما.. استراح كل منهما للآخر.. وعرفا عن بعضهما البعض بمرور الأشهر وبالتدريج، دواخلهما المجتمعية والتعليمية والعائلية.. وطموحاتهما.. والمهارات التي يتمتع بها كل منهما.. وانتقلت العلاقة الثنائية التي نشأت بين الرجلين، إلى صلة عائلية.

(٦)

أُتيح لهذه الصلة أن تنمو وتتداخل، انضمَّ عمرو لنادي التمارين الرياضية الذي رشحه له هاني، والذي كان هو عضو بارز به.. فقد تعودا اللقاء مرتين على الأقل كل أسبوع بعد انتهاء كل منهما من ساعات عمله.. إلا إذا كان أحدهما مسافرًا خارج لندن.. وحول المشروب الدافئ الذي يتناولانه عقب الخروج من الحمام الذي يَعقب انتهاء مجموعة التمرينات البدنية التي يحرصان عليها، يجري الحديث حول أخبار الوطن والجديد في عالم السيارات، وآخر صيحات تقنيات التواصل الاجتماعي..

عرف هاني أن صديقه مغرم بجمع طوابع البريد.. فكان أن عرفه على مصادر الحصول على القديم منها، وأفضل طرق حفظها من التلف.. وشاهد عمرو هاني وهو يقوم بدور الساحر لتسلية الأطفال بمناسبة عيد ميلاد السيد المسيح.. فانبهر به وبقدرته على جذب انتباههم وإبقائهم داخل دائرة تأثيره لفترة طويلة..

اكتشف عمرو أن صديقه يمتلك محيطًا من المعلومات الطازجة حول كل ما هو جديد في ميدان التقنيات فائقة الحداثة، بل على اطِّلاع بأجيالها الجديدة وما ستُحدثه من تطورات في حياة الإنسان ومجتمعه والمؤسسات والحكومات.. وما قد تؤدي إليه من ضربات موجعه تحت الحزام..

لا يُنكر عمرو القاضي في قرارة نفسه.. أنه لما استراح لصديقه الجديد وتعرف على مدى التزامه وحرصه على اكتساب المزيد من المعارف حتى خارج اطار تخصصه الدقيق، عمل على اختباره أكثر من مرة قبل أن يستعين به في حل بعض الألغاز التي كان يُطلب منه فك طلاسمها خاصة ما يتعلق بالتقنيات فائقة الحداثة.. واستعان به للحصول على البعض منها فور نزولها إلى الأسواق، استجابة لتكليف مباشر من رؤسائه..

توثقت العلاقة بين الصديقين إلى آفاق بعيدة لم يكن أيهما يخطط لها.. وبعد أن أمضى عمرو القاضي سنوات خدمته بين أفراد طاقم السفارة المصرية بلندن عاد إلى القاهرة.. وحرص على أن يتصل بهاني من حين لآخر خاصة للتهنئة بمناسبة الأعياد المسيحية.. وأن يقابله في أثناء قضاء إجازته هو وأسرته بمصر، إذا سمحت ظروف عمله بهذا.. وكان هاني أكثر منه حرصًا على وضع هذه المقابلات ضمن برنامج الإجازة، قبل أن يشد الرحال إلى مصر.. وغالبًا ما كان يبلغه بتوقيتات قدومه وعودته، كما يفعل مع أفراد أسرته بالإسكندرية وعائلة زوجته بالقاهرة..

(٧)

حضور هاني إلى القاهرة هذه المرة كان مختلفًا كلية.. هبط إليها هو وزوجته جورجيت على أثر وفاة والدها.. شارك عمرو في مراسم القداس الجنائزي الذي أُقيم بكنيسة العذراء بمصر الجديدة.. عند انصرافه.. حرص عمرو أن يشد على يد صاحبه.. وهو يقول له: " راجع إسكندرية الليلة دي ولا بكرة؟ أجاب هاني: " أنا بايت هناك الليلة ".. رجاه بمحبة أن يوفر ولو ساعة زمن ليجلسا معًا قبل عودته إلى لندن.. وعده هاني بعمل اللازم " عشان إنت عارف.. أنا ح أقضي يومين في إسكندرية.. ولا زم أستعد لإحتفالات أعياد الميلاد في لندن.. زي ما انت عارف.. وكمان والولاد لوحدهم هناك ".. رد عليه عمرو: " أنا واثق إنك ح تعرف توفق مواعيدك ".. افترقا على أن يكون بينهما لقاء عبر الهاتف في القريب العاجل..

بعد يومين.. رن جرس الموبيل.. لما نظر عمرو إلى الشاشة.. انبسطت أساريره.. هاني بيتصل.. بادره " حمد الله على السلامة.. شكلك بتتكلم من

القاهرة.. هيه.. ح اشوفك امتي؟ ".. قال هاني: " والله انت وحظك.. أنا في القاهرة صحيح.. بس رايح فورًا لمستشفى وادي النيل علشان أطل على واحد من أعز أصدقاء أبويا.. وبعدها ح نقضي الليلة عند أخو جورجيت الكبير.. علشان نبقى قريبين من المطار.. أنا مسافر على طيارة مصر للطيران بتاعة الصبح .. "..

لم يلتفت عمرو لمقولة هاني: " أنا مسافر بكرة "..لأنه كان مشغولاً بسؤاله عمن يكون صديق والده هذا.. رد هاني على السؤال.. علق عمرو بإيجاز: " يبقى نتقابل عنده بعد ساعة من دلوقت.. كويس كده؟ ".. رد هاني: " كويس جدًّا ". أكمل عمرو: " وبعدها نقعد جوا المستشفى ناخذ فنجان قهوة مع بعض وأعرف آخر أخبارك.. قلت إيه؟ "أجاب هاني: "استبينا"..

(٨)

حول مائدة صغيرة بكافتيريا المستشفى.. جلس الصديقان يتبادلان أطراف الحديث.. تذكر عمرو ان صاحبه مسافر بمفرده.. ولما سأله.. فهم منه أنه سيترك زوجته مع عائلتها لبعض الوقت " عشان تفك عن نفسها وتخفف من حزنها.. قبل ما ترجع ".. استحسن عمرو تصرفه.. وقال معلقًا: " خير ما عملت.. وكمان لما جورجيت تقضي اليومين اللي جايين مع أمها لحد عيد سبعة يناير.. نفسية والدتها ح تبقي احسن كتير ".. رد هاني والدموع في عينيه: " طبعا العيد مش ح يكون له فرحة زي كل سنة.. بس ده الواجب ودي الأصول يا صاحبي ".. سأله عمرو.. لماذا لا يبقى هو أيضًا؟ رد: "والله كان بودي.. لكن انا كنت مشغول قوي في ترتيبات معرض جديد لمحركات سيارات سباق.. ح نفتتحه في برمنجهام.. تاني يوم من السنة الجديدة.. لما حصلت الوفاة.. ونزلت الأربعة أيام دي غصب عني.. كانت الرحلة كلها على اعصابي.. كنت باتصل بالمشرفين كل ساعة تقريبًا ".. وأضاف كأنما

يؤكد لنفسه استحالة البقاء بالقاهرة أكثر من ذلك: " لأ مستحيل .. إن شاء الله مسافر بكرة ".

احتضنه عمرو وهو يودعه عند باب سيارته.. مذكرًا إياه أن لا ينسي أن يقول لجورجيت زوجته أن تتصل به فورًا إذا احتاجت لأي حاجة في إسكندرية أو القاهرة.. وأن يبلغ سلاماته ومعايدته للأنجال في لندن.

ثم استوقفه كأنما تذكر شيئًا مهمًّا: " لسه بتعمل ألعاب سحرية لأطفال الكنيسة في لندن بمناسبة العيد؟ ".. اغتصب هاني ابتسامة: " لسه.. ما اقدرش أتأخر عنهم "..

دخل هاني سيارته.. أدار محركها.. أخرج يده اليسرى من الشباك محييًا.. بادله صدقة تحية بتحية.. وانصرف كل منهما إلى حال سبيله.

عمرو القاضي..

تخطى سنوات عمره الخمسين بقليل..

اقتنع منذ سنوات المراهقة بمقولة أبيه أن العقل السليم في الجسم السليم.. فواظب على ممارسة الرياضات الفردية بالنادي منذ مرحلة الدارسة الثانوية.. فاكتسب قامة معتدلة وتناسقًا جعله يتخطى مشكلات سنوات المراهقة بأقل المشاكل الأسرية، مقارنة بغيره من أفراد العائلة الكبيرة..

(٢)

لم يكن في ذهنه التقدم بأوراقه بعد إعلان نجاحه في شهادة الثانوية العامة إلى الكلية الحربية.. كان طوال عمره ميالًا للانخراط في ميدان التربية البدنية.. كان يرى نفسه مدرب للسباحة.. أو لألعاب قوى.. أو لكرة التنس.. ثم تغيرت هذه الأمنية بعدما قرأ الكثير عن القائد أحمد عرابي الذي قال لخديوي مصر: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ".. وبعد ما عرفه عن الزعيم جمال عبد الناصر الذي فتح الباب لأبناء الطبقة المتوسطة لكي يكونوا قاطرة التنمية البشرية والصناعية في مصر في الميادين كافة..

أمضى سنوات الدارسة بالكلية دون أن " يُكدر" ولو مرة واحدة.. كانت ملاحظات أساتذته ومعلموه عنه، تضعه في الغالب الأعم بين طلبة المقدمة التي حرص هو من جانبه ان يكون دائماً من بينهم.. بالتركيز الذهني خلال المحاضرات.. والاستذكار أولاً بأول.. والمشاركة الفعالة في البرامج الرياضية والتدريبية على أكمل وأحسن وجه..

(٣)

اختير للخدمة في القوات الخاصة فور تخرجه.. اكتسب خبرة واسعة من قادته ورؤسائه.. تدرب على فنون القيادة، واكتسب قدرة على فرز الأفراد وفق معايير مجربة لتحقيق هدف تكتيكي عسكري أو وطني محدد.. تعلَّم منذ بداية حياته العملية، أن جمع المعلومات عن العدو " توازي الجهد المبذول لإعداد العدة والقوات لدخول المعركة معه ".. تربت لديه بكثرة الممارسة، حاسة التنقيب وراء المعلومة وضرورة تنويع مصادر التأكد من صحتها.. الأمر الذي لفت الأنظار إليه بعد سنوات قليلة من تخرجه.. فكان أن رُشح للعمل في جهاز أمني على درجة عالية جدًّا من التخصص والمعلوماتية..

كان من الطبيعي أن يهتم عمرو القاضي بتقنيات جمع المعلومات بعد أن ذاع صيتها، وتحولت إلى مصدر لا يُستغنى عنه لبلوغ أي هدف.. فبدأ من الصفر.. تعلم أسرارها وقدراتها الفائقة على يد محترفين وأحاط نفسه بمجموعة ممن أصبحوا يمتلكون باعًا عريضًا في هذا الخصوص.. وتبنَّى منهجًا يتيح لفريقه هذا الحصول على كل جديد مهما يكلفهم الثمن، واستعاض عما ينقصه بالبدائل المتاحة..

(٤)

كانت لندن بالنسبة له حلمًا.. سافر إليها لأول مرة ضمن مجموعات من عدة دول متخصصة للتعرف على " مستقبل تكنولوجيا المعلومات "..

أمضى بها أسبوعين.. لم يُهدر خلالهما ساعة واحدة في سبيل الاستزادة مما يعرض عليه وعلى الآخرين من مبتكرات وبرامج ووسائل جمع معلومات، ومستقبل كل ذلك وتأثيراته على نظريات العلاقات الدولية والمجتمعية خلال الخمس سنوات القادمة..

آمن بعد انتهاء فترة الأسبوعين أن اختصار ساعات النوم في لندن، يعني اكتساب المزيد من الخبرة في مجال عمله وتخصصه المهني من ناحية.. ويمنحه الوقت الكافي للتعرف إلى العديد من أجيال تقنيات جمع المعلومات الأكثر حداثة من ناحية ثانية.. وهذا وحده يكفي لفتح المزيد من كنوز المعارف والبقاء دائمًا على مقربة من موجات التطوير التي تعبر البحر المتوسط في اتجاه الجنوب بعد فترة من الزمن، بينما شعوبه في أمس الحاجة لكل ما هو جديد في مجالات تقنيات المعلومات كافة قبل أن تُغلف في صناديقها.

بعد عودته إلى القاهرة.. بذل كل ما في وسعه لكي يضيف كل ما تعلمه واكتسبه من مهارات جديدة ضمن سفريته إلى لندن، إلى آليات العمل الفني والإداري الذي تتولاه الإدارة التي يترأسها.. جوبه بعدد من العقبات البشرية والتقنية.. تمكن من تخطي بعضها، ولم يتمكن من تجاوز البعض الآخر لأسباب متنوعة..

سمع بعض الهمس، ثم الكلام عن تشريحه للعمل بلندن..

سأل الله أن يكون ما يدور حوله صحيحًا.. سبقه تفكيره إلى هناك، كأنما اللغط صار واقعًا.. وسمع عقله يسأل.. ماذا أنت فاعل هناك؟

ورد على نفسه.. كل ما هو في صالح هذا الوطن.. وسمع عقله الواعي يقول له: مش انت قلت في يوم الأيام.. اللي ينام في لندن يا ويله يوم القيامة.. ورد عليه بيقين.. أيوه قلت..

في اللحظة التالية.. سمع عقله الباطن وهو يقول له مبتسمًا بحفاوة.. خلاص يا بطل.. أدي الجمل وأدي الجمال.. ورينا الهمة..

وصدر قرار نقله.. ووزع المشروبات والحلوى على العاملين معه..

وسمع من رئيسه المباشر وهو يثني على إخلاصه وتفانيه خلال الفترة التي عمل فيها معه.. أنه اختير للعمل في العاصمة البريطانية.. لكي يتمكن من توسيع دائرة تقنيات المعلومات، مضيفاً: "اعمل كل اللي تقدر عليه يا

بطل.. علشان نتحصل على كل ما هو جديد في الوقت المناسب.. والأهم من كده عايزينك ترسم لنا خارطة جديدة لمستقبلها هنا في مصر.. خارطة ما تخرش المية ".. رد بهدوء: " تمام يا فندم.. ربنا يعمل ما فيه الخير"..

في نهاية اللقاء أدى التحية وانصرف.

(٥)

تسلم العمل من زميله العائد إلى القاهرة.. رتب مع العاملين معه لخلق نسق متطور يبذل جهد أكثر للتعرف على كل ما هو مستحدث في ميدان تقنيات المعلومات ومصادر التعريف ببرامجها الأكثر حداثة.. بدأ من فوره في بناء شبكة من العلاقات العامة، حرص أن تكون قابلة للتوسع على مدار الساعة.. لم يُركز على جانب دون آخر.. لأنه كان يؤمن أن كل الجوانب تمثل روافد نهر كبير تصب أنهره الصغيرة تجاه مجراه الرئيسي في نهاية المطاف.. وكلما فاض واحد منها بمحصوله الجديد انتقل فيضانه إلى الضفتين الرئيسيتين..

تعرف على العديد من مصادر المعرفة ومنابع المعلومات في لندن.. وتمنى في يوم من الأيام أن يمد الله في ساعات اليوم والليلة الأربع والعشرين لتكون ثمانية وأربعين، لكي يتمكن من تحقيق ما يصبو إليه.. وقال لنفسه: برضه مش ح تكفي..

أدهشته الشخصيات التي تعرف عليها وأثلجت صدره في نفس الوقت.. أكثريتها محب لوطنه مستعد لخدمته كل وفق رؤيته.. والقلة منها لا تريد أن تسمع عنه ولا يهمها أخباره.. حرص على أن لا يضعهم جميعًا في كفة واحدة، ضمهم – بعد فرزهم بعناية – إلى قائمة أصدقائه الجدد بلا تحيز.. حرص كل الحرص على تلبية دعوات حضور فاعليات تقنية المعلومات.. ورشها وندواتها ومعارضها.. التي كانت تعقد على مدار العام في العديد من مدن المملكة المتحدة.. حتى مناسبات توقيع المؤلفين لإنتاجهم في مجالها، لم يفته منه إلا القليل، واقتنى معظم ما نشر في هذا المجال.

بعد أشهر قليلة من وصوله إلى لندن، فرح لما راجع أرشيفه الإلكتروني.. ووجد أنه تضخم إلى ما يوازي الضعفين.. وفرح أكثر بعدما اكتشف أن برامج جمع المعلومات ونماذج تطبيقاتها التي أصبحت في متناول يديه بسهولة ويسر، تعدت الرقم الذي كان مستهدفًا قبل سفره من القاهرة.

(٦)

مثلت لحظة تعارفه إلى هاني عقل مكسبًا مزدوجًا.. على المستوى الشخصي، وجده متعمقًا في ميدان سيارات السباق بحكم المهنية، وبسببها يتشارك معه في هواية التعرف على كل جديد في ميدانها.. على المستوى الوطني، اكتشف بالملاحظة القريبة أنه محب لوطنه على المستويات كافة.. لفت نظره بساطته في الحديث وتواضعه في التعامل وبعده التلقائي عن التعالي المقيت..

زاد تقديره وإعجابه به، بعد أن رآه يقوم بدور الساحر خفيف الظل لجلب البهجة والسرور على الأطفال من ضيوف الكنيسة المصرية بوسط لندن الذين يحضرون إليها في المناسبات الدينية.. لمس عن قرب أنه يمثل مصدر سعادة وحبور بالنسبة لهم ولأسرهم.

مطار القاهرة الدولي..

في مثل هذا اليوم – ٢٤ ديسمبر – من كل عام، تُهيمن على حركة مطار القاهرة الدولي، موجات من مئات المغادرون إلى خارج البلاد.. معظمهم من الأجانب المقيمين في مصر الذين يرتبون قبل أسابيع من هذا التاريخ، لقضاء أيام الاحتفاء بعيد مولد السيد المسيح وفق التقويم الغربي، ومناسبة بداية العام الميلادي الجديد بين أسرهم في بلدانهم الأصلية.. وإذا تصادف وكان بينهم عشرات من المصريين، فيكون ذلك بسبب ضرورة العودة لعملهم أو لبدء فصل دراسي جديد أو لأغراض أخرى بعضها علاجية.

(٢)

هرولت سهيلة زوجة شكيب خلف عامل المطار الذي يدفع أمامه حقيبتيها الموضوعتين على تورلي، وهي تضم ابنتها إلى صدرها.. وضع العامل المتعجل الحقيبتين على السير للكشف عما فيهما، وسبقها إلى الناحية الأخرى.. دقق الضابط النظر في جوازي سفرهما الذي يحمل شعار منظمة الأمم المتحدة.. سألها عن وجهتها، ولما قالت لندن.. أشار لها إلى الاتجاه الذي عليها أن تسلكه.. وقال لها: " همي شوية.. الطيارة ح تفوتك ".. نظرت إليه مذعورة.. خفف عنها.. قائلًا: " بعد ما تختمي الجوازات.. حتلاقي عربية جولف.. اركيبها.. ح توصلك بسرعة ".. شكرته بهزة من رأسها وواصلت الهرولة خلف العامل الذي كان ينظر ناحيتها من حين لآخر..

وجدت ما قال لها عنه الضابط.. جلست في العربة الصغيرة وابنتها في حضنها، رجت سائق السيارة أن يوصلها إلى صالة المسافرين إلى لندن بسرعة.. أجابها.. وهو يضغط بوقها الرفيع ليوسع له السائرون على أقدامهم الطريق.. " من عنية يا ست هانم "..

ردت وهي تفتح تليفونها لطمأنة شكيب كما أوصاها.. " مرسيه ليك كتير".. أخيرًا وصلت إلى هدفها..

استعجلها الموظف المسئول أن تبرز جوازات السفر.. سألها وهو ينظر إليها بشكل روتيني: " رايحة فين حضرتك؟ ".. أجابت من بين أنفاسها المتقطعة: " لندن ".. راجع بطاقة دخولها للطائرة ثم أعطاها إياها..

أشار إلى إحدى المضيفات أن تساعدها.. لبت إشارته بشكل تلقائي.. دفعت حقيبة سهيلة الصغيرة أمامها.. وطلبت منها أن تتبعها على إمتداد الممر شبه الخالي من ركاب الطائرة، التي بدأت محركاتها في الدوران قبل دقائق معدودة.. أغلقوا الباب خلفها، بعد مراجعة أعداد الركاب للمرة الأخيرة..

جلست، بناء على إشارة من أحد المضيفين، في مكانها ضمن مجموعة الأربعة مقاعد التي بمنتصف جسم الطائرة.. أجلست ابنتها عقيلة إلى جورها وثبتت لها حزام الأمان.. هاتفت زوجها للمرة الثانية.. ولما لاحظ أنفاسها المتلاحقة.. طمأنته أن ذلك بسبب حالة الهرولة التي وجدت نفسها مُجبرة عليها من وقت أن تركته إلى أن جلست على كرسيها، حتى لا تفوتها الطائرة..

(٣)

استراح بال شكيب بعد أن غادرته الوساوس التي صورت له – منذ ودع زوجته وابنته – أنهما لن تلحقا بالطائرة.. غادر الرصيف الذي كان يقف عليه مع سيرينا، وأجرى محادثة تليفونية مع روائيل طمأنه من بين كلماتها المحدودة أن زوجته سهيلة لحقت بالطائرة المصرية المتجهة إلى لندن قبل إغلاق أبوابها بلحظات معدودة..

(٤)

سيرينا لم تكن في حاجة إلى الهرولة.. ما زال أمامها وقت طويل.. عند بوابة الدخول.. أبرزت جواز السفر الأمريكي وتذكرة السفر لمن سألها عن وجهتها، فردت باقتضاب: "وارسو".. نظر فيهما أمين الشرطة بإمعان.. ثم ابتسم في وجهها وهو يرد الأوراق إليها.. اتجهت مباشرة إلى ماكينة الكشف حقيبتها متوسطة الحجم وكذا حقيقة يدها.. بعد انتهاء العملية، جرت الحقيبة الكبيرة خلفها وعلقت الأخرى في كتفها.. واختارت لنفسها مقعدًا في انتظار الإعلان عن بدأ التعامل مع ركاب الطائرة المتجهة إلى وارسو.

(٥)

أما صاحبنا سليمان.. فبعد أن انتهى من تمرير حقائبه عبر ماكينة الكشف عما بداخلها، جلس على أقرب مقعد لحين الإعلان عن بدأ التعامل مع ركاب طائرة شركة مصر المتجهة إلى فرانكفورت.. فما زال أمامه وقت طويل.. بذل ما في استطاعته من جهد لتهدئة خواطره على أمل أن يفكر بلا انفعال فيما قد يكون وراء لقاء الرصيف الذي جمع بين شكيب وسيرينا منذ فترة وجيزة ..!!

سأل نفسه هامسًا: يا ترى فيه إيه بينهم؟

ولما لمح سيرينا في الناحية الأخرى.. وهي تدفع أمامها حقيبة متوسطة الحجم رباعية العجلات وتتابع النظر إلى منافذ رحلات طائرات الشركة المصرية.. حمد الله أنها لم تره، وخمَّن أنها هي أيضًا لا بد ذاهبة لقضاء إجازة أيام عيد الميلاد وبداية العام الجديد مع أسرتها.. ألح عليه الوسواس الخناس بقوة.. فقال في نفسه: " تروح في ستين داهية "..

راحت طاقات الهواجس تمطره بسيل من الشكوك، من عينة.. ماذا لو أن شكيب لم يضع الفلاشة في بطن الدبدوب، وانه أعطاها لسيرينا؟ وجاءه الرد: وإيه اللي يمنعه من القيام بهذا الفعل؟ كان من المنطقي أن يفكر.. أن هذا التصرف يبرهن على وجود سابق معرفة بينهما.. وأن التعاون بينهما لم يأت مصادفة!..

ثارت حفيظته مجددًا، وتشكلت أمام عينه خيوط مؤامرة نسجت خيوطها بإحكام.. فرضت عليها أن لا تعير شكيب أي اهتمام لما جاء ليودعه عند دير سانت كاترين.. وأن لا تهتم بوجوده إلى جواره هو وأسرته، ليلة العرض الفني بوكالة الغوري..

وتساءل للمرة العاشرة: لماذا يتآمرون عليه؟

ولما لم يجد إجابة شافيه قام من مكانه.. تمشى قليلًا ثم عاد إلى مقعده.. انتقل به حديث الوساوس إلى زاوية أخرى.. فرضت عليه ان يترك أمر شكيب وسيرينا جانبًا، وان يسأل نفسه: ماذا هو فاعل الآن لكي يخرج من هذه الورطة التي نزلت على رأسه كالصاعقة بلا مقدمات.

(٦)

جلس مفكرًا.. مرت دقائق.. تداخلت العديد من الصور في رأسه.. كان أبرزها صورة عمرو القاضي.. قرَّر من فوره أن يتصل به، ولكنه تمهل.. همس لنفسه بصوت متردد: "هو قال لي "تتصل بالرقم ده لما تلاقي نفسك في كارثة ".. كادت جمجمته تنفجر تحت وطأة التفكير.. سمع الوسواس يقول له وهو ينهره ليحسم أمره: "هو فيه كارثة أكبر من اللي انت فيها دلوقتي "..

نقر رقمه الذي يحفظه عن ظهر قلب على شاشة الهاتف..

جاءه صوته على الطرف الآخر يقول: " أيوه ".. أجاب سليمان: " أنا سليمان عبد المقصود.. كنت حاضر البرنامج التدريبي اللي.. ".. لم يدعه عمرو يكمل: "أيوه افتكرتك.. فيه حاجة عايز تقولها؟ " رد سليمان بلهوجة: "أنا في مصيبة سودة وعايزك تسمعني"..

تعمد عمرو أن يُكسب صوته بعض الهدوء وهو يقول: "انت بتتكلم منين؟" أجاب سليمان من فوره: "من مطار القاهرة ". استحثه الآخر:

"الداخلي ولا الخارجي".. أجاب بسرعة: " الدولي.." سأله بنفاد صبر: "فيني حتة من المطار ".. قال: " الصالة اللي ورا الأجهزة اللي بنحط عليها الشنط قبل ما نروح الجوازات ".. أمره أن يبقي في مكانه.. وأضاف: "ما تتحركش من الحتة اللي انت فيها.. أنا ح اتصرف"..

بعد فترة وجيزة تلفت حوله خلالها أكثر من مرة.. سمع من ينادي: "السيد سليمان عبد المقصود".. رد بصوت عالٍ وهو يقف مكانه.. "أيوه أنا ".. دون أن يسلم عليه أو يحييه.. أشار بيده.. " هات شنطك وتعالا معايا ".. جر حقيبة وعلق الأخرى على كتفه وهرول خلفه.. وهو يحاول إقناع نفسه أن مكالمته مع عمرو القاضي كانت هي الحل العملي " اللي مافيش غيره ".. وتذكر المثل الذي يقول: " يا صابت يا اتنين عور"..

اكتشف بعد عدة أمتار، أنه يسير خلف ضابط برتبة رائد..

(٧)

فتح له مرافقه أحد الأبواب.. وأشار إليه أن يدخل.. دخل دون أن ينبس بحرف.. رحب به ضابط آخر – لم يدقق إذا كان ذو رتبة أعلى أم لا – وأشار إليه أن يجلس على كرسي قريب من مكتبه، وهو يرحب به بكلمات لم يسمعها سليمان.. جلس دون ن يرفع عينه للتعرف حتى على تقاطيع وجه الذي يجلس في حجرته..

ضغط المضيف عدة أرقام على هاتف يحمله في يده.. بعدها سمعه سليمان يقول: " سيادة اللوا عمرو.. الأستاذ سليمان جه مكتبي وهو مع حضرتك أهوه ".. قدم الهاتف لسليمان.. وقال له بلهجة آمرة: " رد ".. بين الواقف والجالس تناول منه الماكينة..

بادره عمرو بالقول: " الأول.. هدي نفسك على الآخر.. مش عايزك تبقى مضطر.. فاهم ".. أجاب وهو ينظر ناحية الضابط الجالس على الناحية الأخرى من المكتب: " حاضر يا فندم ".. سأله وهو يضغط على حروف الكلمات القليلة التي نطق بها: " احكي لي.. إيه اللي حصل "..

حكي سليمان كل شيء بالتفصيل.. وعمرو يسمع منه.. وفي بعض الأحيان يستفهم منه عما غمض عليه.. أخيرًا سأله: " بتقول شفت اللي اسمها سيرينا معدية أدامك من ربع ساعة تقريبًا ".. رد من فوره: " أيوه بعد ما خلصت تمرير حقيبتها على السير".. أكمل عمرو.. " هي اسمها التاني إيه؟ " رد سليمان من فوره: " سيرينا جولدن شتاين ".. ودون أن يسأله الآخر.. أضاف.. " بتشتغل مستشرقة في الجامعة الأمريكية "..

طلب منه عمرو أن يعطي الهاتف للسيد العقيد الجالس في مكتبه.. قام واقفًا.. قدم الماكينة للضابط.. الذي كان مشفقًا عليه من حالة الاضطراب الملحوظة على كل كيانه.. تناولها منه.. وشكره وهو يبتسم له..

استفهم عمرو منه: " طبعًا سمعت معايا للي قاله الضيف اللي عندك ".. رد بنعم.. سأله: " وانت شايف إيه ".. قال العقيد بشكل محدد.. " عندنا سيادتك ثلاث أشخاص لا بد الفلاشة تكون مع واحد منهم.. شكيب ضابط قوة حفظ السلام.. اللي من المؤكد أنه في طريقه الآن لعبور قناة السويس إلى الناحية الشرقية .. وده لا زم نتعامل معاه بحذر ونفتشه بعناية عند أول نقطة مرور بالضفة بعد ما يعدي الناحية التانية ".. قاطعه عمرو: "سيب لي العملية دي انا ح اتصرف فيها فورًا ".. وأضاف عمرو.. " الشخص التاني.. الست دي اللي اسمها سيرينا.. ح نعمل معاها ايه.. وما تنساش انها عدت من البوابة خلاص "..

تناول العقيد من محدثه الخيط وأكمل: " طبعًا مش ح نقدر نرجعها للماكينة مرة ثانية، علشان ما تبقاش العملية مكشوفة ".. سأله عمرو عما يفكر فيه.. شرح له أنه سيقوم بنفسه بمراجعة شريط صور حقيبتها المسجل على الجهاز.. وكذا شريط الفيديو اللي بيصور المسافرون فور دخولهم إلى الصالة الأمامية..علشان أتأكد إذا كانت دخلت دورة مياه قبل ما تحط شنطها على السير أم لا ".. وأضاف أنه لا يزال يفكر في وسيلة تمكنه من إعادة تفتيش حقيبة يدها مرة أخرى دون لفت نظرها..

وختم تحليله بالقول إن الشخص الثالث جالس داخل الطائرة المتجهة إلى لندن الآن.. طلب منه عمرو أن يترك أمرها له.. ورجاه أن يُسعفه بما سيتوصل إليه بالنسبة لسيرينا فورًا.. جاءه الرد: " تمام سيادتك "..

(٧)

بعد انتهاء الحديث، تحرك الضابطين الكبيرين في اتجاهين متوازيين يكمل كل منهما الآخر.. خرج العقيد من مكتبه في اتجاه ماكينة كشف محتويات حقائب المسافرين بعد أن كلف أحدهم أن يأتي بكوب شاي بالنعناع لضيفه سليمان، الذي سارع بالوقوف وهو زائغ العينين لما لمحه يهم بمغادرة مكتبه.. أشار إليه أن يجلس.. ووعده أن لا يغيب عنه سوى دقائق..

أما عمرو القاضي، فطلب من مدير مكتبه أن يوصله بشخص محدد بمكتب أمن مدينة الإسماعيلية.. حيَّاه ولخص له ضرورة تفتيش ضابط قوة السلام الكندي الجنسية الذي سيمر عليه بعد فترة وجيزة.. بحثًا عن فلاشة كومبيوتر أو لاب توب لها أهمية خاصة..

بعد نحو ربع ساعة تواصل الرجلان مرة أخرى.. العقيد طمأن اللواء عمرو أن صور حقيبة سيرينا متوسطة الحجم لا تظهر أي شيء يمت بصلة إلى أدوات أو توصيلات كومبيوتر أو لاب توب.. كلها ملابس وبعض

التذكاريات والهدايا المغلفة التي ربما تحملها معها كهدايا بمناسبة أعياد الميلاد.. وأكد له ان تفريغ شريط الفيديو الذي صور تحركها هي وغيرها من المسافرين في طريقهم من البوابة إلى مكان ماكينة فحص الشنط، كشف أنها لم تدخل إلى أي دورة مياه..

علق عمرو: " يبقى ما فيش قدامنا إلا ان إحنا نحاول تفتيش شنطة يدها مرة ثانية.. باي شكل.. وانا ح اعتمد على الله وعليك في المهمة دي ".. رد العقيد: " ربنا يعمل ما فيه الخير " ولما سأله عن ضابط قوة حفظ السلام، طمأنه عمرو أنه طلع نضيف.. ورجاه أن يبلغ فورًا بما سيخرج به من عملية تفتيش حقيبة يد سيرينا للمرة الثانية..

فجأة سقط مصباح كهربائي من أعلى السقف بالقرب من المكان الذي تجلس فيه سيرينا.. قفزت مذعورة.. انتبهت من خضتها إلى ضابطة مصرية متوسطة العمر.. تمد يدها للمساعدة وتربت بالأخرى على كتفها مطمئنة.. ولما همَّت بفتح حقيبة يدها.. طلبت منها أن تأخذ حذرها إذ ربما تكون قطعة زجاج قد قفزت إلى داخلها نتيجة سقوط المصباح الكهربائي..

فزعت سيرينا لثوانٍ.. انتهزت الضابطة لكي تقودها من يدها.. وهي تقول: " تعالي معايا.. فرغيها على المكتب اللي هناك ده.. علشان نتأكد إن ما فيش فيها حاجة تعورك ". وأفهمتها وهي تبتسم في وجهها بود مصطنع.. أنها طالما تجلس في هذه الصالة فإن سلامتها تقع بين يدي سلطات المطار حتى تركب طائرتها..

وصلتا إلى المكتب.. سألتها الضابطة وهي تفرغ محتويات الحقيبة: " انت مسافرة لفين ".. أجابتها بشكل تلقائي.. وهي تنظر إلى أصابع الضابطة وهي تشير إلى شظيتين من الزجاج الدقيق عثرت عليهما ضمن محتويات الحقيبة.. " وارسو ".. ألقت الضابطة بما عثرت عليه جانبًا.. وشاركت المسافرة في إعادة محتويات الحقيبة إلى داخلها وهي تسمع كلمات الشكر الواجبة في مثل هذه الحالات.. هوَّنت عليها.. وتركتها تعود إلى مكانها حيث كان واحد من العمال يقوم بعملية تنظيف الأرض القريبة منه..

شكر عمرو القاضي العقيد الذي أكد له أن حقيبة سيرينا خالية مما كان يبحث عنه.. واتفق الطرفان أنه لم يعد أمامها إلا التركيز على الشخصية الثالثة.. سهيلة زوجة الضابط الكندي، وابنتها الجالستين الآن في داخل الطائرة المتجهة إلى لندن..

(٨)

بالتوازي مع عدد الكلمات التي ركزت على مقولة: "سهيلة المسافرة الآن إلى لندن " برزت صورة هاني عقل على الجانب الآخر من شاشة رأس عمرو القاضي وهو يودعه قبل ساعات بعد انتهاء لقائهما القصير بمستشفى وادي النيل..

أخذ عمرو نفسًا عميقًا.. وأراح رأسه المتعب لثوانٍ معدودة.. واختار، قبل أن يبادر بالاتصال بهاني، أن يعرف على وجه التحديد أين موقع الطائرة في اللحظة الراهنة..

استقر على أمر محدد المعالم.. طلب برج مطار القاهرة الدولي.. عرف من المسئول عن حركة الطائرات من وإلى المطار أن الطائرة المصرية المتجهة إلى لندن تطير في اللحظة الراهنة فوق الجنوب اليوناني، ومن الصعب تغيير اتجاهها لكي تعود إلى القاهرة.. سأله عن اسم طيارها الأول.. ورجاه أن يوصله به..

رنَّ هاتف الطيار المباشر داخل كابينة الطائرة المتجهة إلى لندن.. رد متفائلًا خيرًا بعد أن تبين له أن برج المطار هو الذي يتصل به: " فتح الميكرفون الداخلي.. وقال: " معاك.. أسمعك بوضوح ".. سمع من يقول له: " اللوا عمرو القاضي ح يكلمك ".. رد بشكل روتيني: " أهلًا وسهلًا ".. تبادلا التحية المتعارف عليها.. عرفه عمرو بنفسه.. واستأذنه أن يرسل في طلب الراكب هاني إبراهيم عقل بالدرجة السياحية إلى الكابينة.. لكي يكلفه بمهمة محددة.. رد الكابتن: " تمام معاليك ".. بقي كلاهما على الخط..

بعد دقائق سمع عمرو القاضي الكابتن وهو يقول: مكالمة من اللوا عمرو القاضي.. اتفضل حضرتك ".. ملهوفًا.. تناول هاني السماعة وهو يقول: "خير يا باشا.. جورجيت جري لها حاجة؟ ".. طمأنه عمرو على زوجته.. وطلب منه أن يهدئ من روعه.. ويستمع له كويس..

حكي له باختصار حكاية سهيلة.. وأفهمه أن الدبدوب الذي تحمله ابنتها.. التهم في جوفه قبل أن يغادرا القاهرة أكلة دسمة، وعلى الساحر العجيب أن يسترجعها.. وأن يبلغه بكلمة واحدة أنها في حوزته.. رد هاني بسعادة: " استبينا ".. ابتسم عمرو وهو يسترجع بعض صور لصاحبه وهو مندمج بين أطفال الكنيسة يوزع عليهم الفرحة والسعادة.. وقال له بشكل تلقائي: " استبينا "..

(٩)

شكر هاني الكابتن.. وخرج إلى بطن الطائرة يتمشى بين مقاعدها التي كان غالبيتها شاغرًا من الركاب بشكل ملحوظ.. يبحث عن الراكبة التي قال له عنها صديقه.. لم يطل به الوقت.. عثر على غايته.. الصغيرة وأمها.. لا يبعد كرسيها عن مكان جلوسه إلا بمقدار صف مقاعد واحد.. الاثنتان تجلسان أمامه.. سمع الأم تتكلم مع ابنتها بلهجة اقرب للشامية منها إلى أي لهجة عربية أخرى.. رأى أنه اذا ترك مقعدة بالقرب من النافذة وانتقل إلى المقعد المطل على الممر.. ستكون الرؤية أفضل.. وكذلك ستكون فرصة لفت نظر الصغيرة أسرع وأسهل..

أكمل مسيرته إلى حيث مقعده.. جلس يفكر.. كيف للساحر أن يستقطب صاحبة الدبدوب؟

خاطبته تجاربه السابقة.. ما فيش غير الفيل اللي بيتكلم من جوا المنديل.. ورد عليها: بس إحنا ما معناش المنديل.. نعمل إيه؟ هداهُ تفكيره أن يطلب

فوطة مائدة قماش من المضيفة.. عندما تقدم له وجبة الغداء.. لما جاء دوره، تناول منها صينية الغذاء.. ورجاها أن يستأجر منها فوطة " من بتوع الدرجة الأولي ".. ووعدها أن يردها إليها.. ".. كاملة على بعضها.. مش متقطعة.. ".. قبل أن يصلوا مطار هيثرو..

استغربت الطلب وقالت باندهاش.. ".. ح تعمل بيها إيه.. " رد هامسًا وهو يغمز لها بعينه القريبة منها.. " ح أوقع البت الصغنونة دي.. في غرامي.. لما تسمع الفوطة بتنادي عليها.. " بادلته غمزة بغمزة وهي تقول.. ".. البت الصغنونة.. ولا أمها.. " اقسم لها ان هدفه الصغنونة..

لم يسعها إلا أن تهز كتفيها استغرابًا لما يقول.. ووعدته بتوفير طلبه بعد ان تنتهي من خدمة الركاب.. مشترطة عليه إعادتها إليها.. شكرها مبتسما.. وهو يعلق ان هذا من حقها..

تابع عن قرب محاولات الأم المضنية لإطعام الصغيرة.. وأدرك كم تبذل من جهد لكي تقنعها بمضغ ما في فمها من طعام..

انتهى من تناول وجبته المفضلة.. المأكولات البحرية.. انتبه للمضيفة وهي تدفع إليه بالفوطة وهي تقول: " ترجعها نضيفة زي ما هيا.. قبل ما ننزل مطار هيثرو ".. تناولها منها شاكرًا.. وهو يعدها بكل خير.. عاودتها حالة الاستغراب لحالته وهي تستعيد صينية الأكل الفارغة..

صنع هاني، بمهارة وسرعة، من الفوطة عروسة متحركة.. ترقص بين أصابعه.. وتهز وسطها بدلال.. وتنطق من وراء ستار.. رفعها بين أصابعه ليضبط إيقاعها.. ولما اطمأن لكفاءة اختراعه.. بدأ يفكر في الخطوة التالية.. كيف يمكن له الاستفادة من عروسته لجذب نظر الصغيرة، دون أن يثير شكوك أمها؟

قال لنفسه.. أكيد الصغيرة ح تعمل حاجة.. يُمكن ان تستغلها العروسة لكي تدخل في حديث مباشر معها.. زي ما كان بيحصل في مناسبات الأعياد التي كان يحضرها الصغار.. وسرعان ما جاءته الفرصة التي كان ينتظرها.. سمع الأم وهي تكرر رجاءها لابنتها، بصبر يكاد يصل إلى درجة الاستجداء، أن تبلع الأكل الذي في فمها.. وشاهد الصغيرة وهي تهرب برأسها يمينًا وشمالًا دون أن تستجيب..

أمسك العروسة وقربها من فمه.. وجعلها تقول: يا دبدوب لازم تخلص أكلك.. علشان ما تبقاش نوتي..

شد انتباه الطفلة الكلام عن دبدوبها.. ارتسمت على وجهها تعبيرات مرحة غير مُصدقة.. عندما أدارت رأسها ناحية مصدر الصوت .. سمعت العروسة الفوطة تحييها، ضحكت بصوت طفولي لفت نظر أمها.. أدارت هي الأخرى رأسها لترى ما الذي أضحك ابنتها.. ابتسمت.. حيَّاها هاني باسم العروسة التي معه.. قائلًا " صباح الخير يا مامي ".. احتارت الأم

بماذا تجيب.. عادت عقيلة برأسها ناحية أمها.. وقالت لها وهي تشير ناحية هاني وعروسته: " عمو معه عروسة بتتكلم متلنا ".. وأعادت رأسها إلى الوراء مرة ثانية في سعادة.. سمعته يقول: " وعمو هاني بيقول صباح الخير للدبدوب الجميل".. اتسعت عينا الصغيرة..أدارت رأس الدبدوب ناحية هاني.. وهي تقول: " سمعت العروسة البيضا.. شو بتقول لك ".. ضمت عروستها إلى صدرها بعاطفة.. وقالت وهي تنظر ناحية هاني: " الدبدوب بيقول لعمو شكرًا كتير على ذوقك ".. رد هاني أن العروسة البيضا مستعدة إنها تلعب مع الدبدوب بشرط إنه يخلص كل الأكل بتاعه..

سمع هاني الأم وهي تقول لابنتها: " وانت كمان.. لو خلصتي أكلك كله.. ح اخليكي تروحي تلعبي أنت والدبدوب مع العروسة البيضا الحلوة دي ".. لم تستجب عقيلة من فورها لهذه الحيلة.. كررت الأم وعدها.. نظرت حولها.. وجدت صف الكراسي الذي يقع خلفها مباشرة خاليًا تمامًا من المسافرين.. قالت لها وهي تشير إلى المقاعد الموازية تقريبًا للكرسي الذي يجلس عليه هاني: " لو خلصتي أكلك كله.. ح نرجع ورا نجلس في الكراسي دي ".. تمنعت الصغير ة لثوانٍ.. وبدأت في مساومة أمها على أمل ان تكتفي بنصف ما تبقى.. رضخت سهيلة.. اعتدلت الصغيرة.. ألقمتها امها ما بقي من طعامها على مرات قليلة.. ولما فرغ ما في صحنها.. أخرجت رأسها من تحت حزام الأمان.. وسبقت أمها إلى صف الكراسي الخلفية.. دون انتظار لأن يذهبا معًا..

جلست عقيلة بنصف ظهرها على الكرسي لكي تكون أقرب إلى هاني الذي بادرتها عروسته قائلة: " أنا اسمي سمراء.. وانت اسمك إيه؟ ".. التفت الصغيرة إلى أمها وعلى وجهها ابتسامة سعادة لما سمعته.. شجعتها أمها أن تقول اسمها.. انتهز هاني لحظة الصمت.. وجعل عروسته تقول: " يمكن يا مامي ما تعرفش اسمها ".. بحماسة طفولية.. أجابت: " ولو.. عقيلة شكيب ".. وهي تنظر ناحية أمها لتأكيد صحة ما قالت..

بينما تهزُّ سهيلة رأسها لابنتها مؤمِّنة على صحة اسمها.. سألتها عروسة هاني:.. " إنت اسمك عقيلة.. ودبدوبك.. إسمه إيه؟ ".. احتارت الصغيرة.. أعادت النظر إلى أمها.. التي همست في أذنها.. ابتسمت عقيلة.. وقالت: " اسمه دبدوب وبس "..

رفعت عروسة هاني يدها محيية.. وهو ينطق نيابة عنها.. " هاي دبدوب.. إزيك.. انت كويس.."..مرة ثانية تحتار الصغيرة.. تهمس أمها في أذنها.. تمسك عقيلة بيد الدبدوب.. وتقول له: " قول هاي لسمارة ".. ثم تنظر ناحية هاني.. وتقول: " الدبدوب.. يقول هاي لسمارة ".. قرب هاني عروسته من المكان الذي تجلس فيه عقيلة.. وهو يقول بلسانها: " يا دبدوب.. أقول لك على سر ".. ضحكت الصغيرة ووضعت يدها على فمها: " يعني شو ".. قالت عروسة هاني وكأنها تتلفت يمينًا ويسارًا حتى لا يسمع السر آخرون: " عمو هاني.. عنده حكاية جميلة جدًّا.. مسجلها على الأي باد بتاعه.. اسمها الفيل

النونو الغلباوي.. خليه يقراها لك ".. نظرت الصغيرة إلى أمها.. وهمست لها بسؤال.. كيف يكون الفيل نونو وغلباوي؟ أشارت الأم إلى هاني وقالت لها.. " اسألي عمو.. وهو ح يقول لك ".. أجلسَ هاني عروسته إلى جانبه.. وفتح حقيبته الصغيرة.. أخرج منها الأي باد.. وفتحه.. ثم ضغط بعض الأرقام والحروف.. وتخير عنوان محدد.. ولما اشتغل البرنامج.. قدم الأي باد لسهيلة.. وقالها.. شغيله حضرتك.. عقيلة ح تنبسط من الحكاية قوي.. مدت الأم يدها وتناولت الجهاز وهي تكرر كلمات الشكر العميق.. اعتدلت عقيلة في جلستها.. لفت الأم يدها حولها وهي تقرب منها شاشة الأي باد.. وأصغت كل منهما السمع.. لاحظ هاني أن الأم كانت تتوقف لبعض لحظات لكي تفهم اللهجة المصرية.. ثم تعيد صياغة الحكاية باللهجة الشامية حتى تتابع الإبنة الأحداث.. تابعهما عن قرب.. أسعده الابتسامات التي كانت تعبر عن تجاوب الأم وابنتها مع تطور الحكاية.. وفرح أكثر لما تعالت ضحكات عقيلة الطفولية المتتالية بسبب التصرفات الصبيانية التي كان يتسبب فيها الفيل النونو..

سرح فكره.. بين الاقتراب الذي حققه لجذب نظر الصغيرة وأمها.. وبين ما هو مكلف به.. أراح رأسه على أعلى الكرسي.. ووجد نفسه يسأل وهو يغمض عينيه.. هل يفتح له هذا التجاوب الذي سار إلى أبعد ما كان يظن.. الباب لكي يسترجع الوجبة الدسمة التي التهمها الدبدوب في بطنه؟ أم أنه سيضطر إلى بذل جهد إضافي؟

انتبه على يد الصغيرة توقظه.. وتسأله بكسوف.. ممكن عمو أتفرج على الفيل النونو.. كمان مرة؟ أمسك بكتفيها.. قبلها بين مفرق شعرها.. ورد عليها وهو في قمة سعادته.. " طبعًا.. بكل سرور "..

استدارت عقيلة للعودة بينما أمها تومأ برأسها شكرا لهاني.. وتعتذر قائلة.. " باعتذر منك كتير.. أزعجناك.. " سارع هاني بالقول " ما تقوليش كده.. أنا سعيد إنها مبسوطة " وختم بالقول: " ربنا يخليها لك " ردت في مودة: " مش عارفة أقول لك إيه ".. أشار هاني بيده أنه لا مكان لمثل هذا الكلام، بينما الصغيرة تعود إلى مقعدها.. " ما تقوليش حاجة ".. ثم متعمدًا تغيير مجرى الحديث.. " أنتم عايشين في لندن؟ ".. أجابت وهي تستعد لفتح الأي باد.. " لا.. نحنا تارنزيت بس.. بعد ساعتين من وصولنا لمطار هيثرو.. ح ناخذ البان أمريكان في طريقنا لنيو جيرسي.. " تمني لها هاني سلامة الوصول.. وتركها لتبدأ حكاية الفيل النونو مرة ثانية.. أراح رأسه على مسند الكرسي.. وحاول استعادة السؤال الذي كان يبحث عن اجابة له.. كيف السبيل إلى بطن الدبدوب؟

(١٠)

قطعت المضيفة عليه طريق البحث لتقديم بعض المشروبات.. عاد هاني للتجوال خلف أفكاره وكيف السبيل إلى بلوغ غايتها.. لمح الصغيرة وهي تترك مقعدها للسير نحوه.. ابتسم لها مشجعًا.. ألقت بنفسها بين ذراعيه.. قالت له وهي تعيد الأي باد إليه.. " شكرًا كتير يا عمو ".. سألها إن كانت حكاية الفيل أعجبتها.. ارتسمت ابتسامة على شفتيها.. وقالت بحماسة وهي تفتح ذراعيها على اتساعهما: " كتير كتير كتير.. يا عمو".. قبل أن تعود إلى حيث تنظر إليها أمها بامتنان.. سألها إن كان الدبدوب انبسط من الحكاية أم لا.. نظرت ناحية كرسيها.. وقالت بحزن: " الدبدوب تعطل يا عمو.. الماما بتقول.. البطاريات.. خلصت.. ما عاد قادر على الحكي "..

اصطنع الفزع.. وسألها: " إزاي.. البطاريات تخلص.. الدبدوب.. يمكن يكون جعان.. علشان كده.. مش قادر يتكلم ولا يسمع ".. ردت وفي عينيها نظرة الحزن: " ما أني عارفه يا عمو.. الماما بتقول.. البطاريات عايزة تتشحن.. وما في فرصة هون على الطيارة "..

انفتحت السماء، وجد هاني ما كان يبحث عنه..

عقد ما بين حاجبيه تعبيرًا عن الاهتمام.. وسألها إن كان يستطيع أن يحكي مع الدبدوب: " يمكن أعرف أشغل بطاريته "، تهلل وجهها فرحًا.. ورجعت خطوتين إلى الوراء.. أخذت عروستها من يد أمها الممدودة بها إليها.. حملتها برفق وعادت بها إلى هاني..

قدمته له بمزيج يجمع بين الخوف والأمل.. وهي توجه كلامها بجدية للدبدوب: " عمو عايز يعرف إيش بك ".. أخذه هاني منها.. وهو يردد كلمات الترحيب به.. وادعى أنه يسأله: " مالك يا صاحبي ليه مش بتحكي ".. وضع رأسه بالقرب من أذنه لعدة ثوانٍ.. ثم أبعده.. ناصحًا عقيلة أن تتركه نائمًا بينها وبين الماما بعض الوقت.. حتى يسترد عافيته.. استراح هاني لهذه الفكرة.. ربما تسمح له فترة الراحة التي سيحتاجها الدبدوب للتفكير في الخطوة التالية..

حملت الدبدوب في طرق عودتها لأمها..

رجعت بعد خطوة واحدة إلى حيث كانت.. وقالت لهاني: " أنا ح أجيب الشرشف تاعه.. وأخليه معاك لحد ما يصحا ".. قدمت إليها أمها الشرشف الملون.. أمسكت به عقيلة عادت بالدبدوب وشرشفه ناحية هاني.. ترك لها المقعد البعيد عن النافذة.. وهو ينظر ناحية أمها.. التي كانت تتمنى من كل قلبها.. أن ينجح هذا المصري في إنطاق عروسة ابنتها، كما نجح في اقناعها

بإكمال وجبة غدائها ومنحها الكثير من المرح بحكايات الفيل.. لأن صمت الدبدوب بدأ يمثل لها مشكلة عويصة على الحل..

أجلس هاني عقيلة إلى جانبه وثبت لها حزام المقعد.. ووضع الدبدوب في حجرها.. وغطاهما بالبطانية.. وفتح الأي باد على حكاية أخرى.. وهو يقول لها: " دي حكاية القرد النطاط ".. رفعت حاجبيها اندهاشًا.. ولما ظهرت الصور.. بدأ في سردها على أذنيها وهي في قمة سعادتها..

لما لاحظ أن الأم تتابعهما.. أشار إليها إن كانت ترغب في أن يتبادل كرسيه معها لتكون بجوار ابنتها.. هزت رأسها نفيًا.. ثم أدارت رأسها بعيدًا.. وشغلت نفسها بما كانت قنوات عرض الأفلام تبثه لركاب الطائرة.. واصل هاني الحكي.. لاحظ بعد دقائق أن الصغيرة أسلمت نفسها للنوم.. أراح رأسها على الوسادة التي كانت ترتكن عليها.. أحكم الغطاء حولها وحول دبدوبها..

أغلق شاشة الأي باد.. لما رفع رأسه.. وجد الأم تقف بالقرب منه.. شكرته على العناية بابنتها.. سألته إذا كان نومها يسبب له أي إزعاج.. نظر إليها معاتبًا.. وقال لها: " دي زي هالة حفيدتي ".. شكرته عدة مرات.. ولما سألته: " باقي وقت قد إيه على ما نوصل هيثرو؟ ".. نظر في ساعته وقال لها: "حوالي ساعة وربع".. قالت وهي تسير في الاتجاه الآخر: " كويس ألحق أروح الحمام أهندم حالي قبل ما الطيار ينزل بينا بالسلامة ".. استدارت سهيلة في طريقها إلى دورة المياه..

(١١)

أسرع هاني بإخراج سلسلة مفاتيحه.. أمسك بالمفك الصغير المثبت على حلقتها.. تناول الدبدوب بهدوء من حضن الصغيرة.. فك المسامير التي تمسك بغطاء البطاريات.. أخرج العلبة التي تحتوي أربعة منها.. مد إصبعين داخل بطن العروسة.. عثر على ما كان يبحث عنه.. " وجبة الفلاشة الدسمة ".. على حد وصف صديقه عمرو القاضي.. قام بحك البطاريات بأصابعه عدة مرات.. بعثت أصابعه بعض الدفء فيهم..

أعاد مكونات بطن الدبدوب إلى داخله.. ربط المسامير بإحكام.. ضغط زر التشغيل.. استجاب الدبدوب للحركة.. أسكته بسرعة حتى لا يزعج الصغيرة النائمة.. وضع الفلاشة بعناية في جيب سترته الداخلي وأمن عليها..

أرجع الدبدوب في حضن صاحبته.. أغمض عينيه.. وعلى وجهه ابتسامة رضا وحمد لله أن وفقه لما كان يحمل هم كيفية تحقيقه.. فتح عينه على تململ الصغيرة في نومها.. تثاءبت بكسل.. وسألته: " وينه القرد النطاط ".. رد من فوره وهو يعتدل في جلسته أنه نام هو أيضًا..

قامت سهيلة من مكانها لما سمعت صوت ابنتها وهي تتحدث.. شكرت هاني بكل ما أوتيت من بلاغه.. رفعت الغطاء عن الصغيرة.. حملتها هي والدبدوب وعادت إلى كرسيها.. أجلستها إلى جوارها.. وفجأة سمعت الدبدوب يغني مرة ثانية.. فرحت عقيلة.. والتفت إلى حيث تركت هاني.. وقالت بصوت يحمل كل السعادة : " شكرًا كتير يا عمو الدبدوب فاق من النوم.. وبدا يغني ".. أشار لها هاني بأصبعه الإبهام.. وعلى وجهه ابتسامة كبيرة.. بينما الأم تومئ برأسها تحية وامتنانًا..

(١٢)

نظر هاني في ساعته باقي من الزمن أقل من ساعة.. كتب سطر واحد على ورقة طواها.. وقام سائرًا في اتجاه كابينة القيادة.. استأذن كبير المضيفين أن يعطيها للكابتن.. وقف في مكانه للحظات.. عاد إليه الرجل.. وهو يقول: " الكابتن بيقول لحضرتك.. اتفضل "..

سار أمامه.. وفتح باب الكابينة.. دخل هاني.. بادر بالاعتذار عما قد يسببه من إزعاج.. ضغط الرجل أرقام التليفون الذي اتصل عن طريقه اللوا عمرو من القاهرة.. وطلب من ضابط البرج ان يوصله به للأهمية.

جرى الاتصال بين الطائرة والبرج.. بناء على تعليمات مسبقة من عمرو القاضي الذي رحب بالكابتن وشكره على تعاونه.. أبلغه أن الراكب هاني يريد أن يحادثه ..

كلمتين قالهما هاني: " أهلًا يا باشا.. استبينا ".. فهم عمرو مضمون الرسالة.. شكره بصوت فرح.. ووعده بأن يرتب حالًا من يستقبله فور خروجه من المطار.. ناول هاني السماعة للطيار.. وشكره وهو يخرج من باب الكابينة..

(١٣)

هبطت الطائرة في مطار هيثرو.. بعد برهة فتحت الأبواب.. جاءت وقفت سهيلة وابنتها أمام هاني مباشرة.. تمنى لهما أن ينعما بوقت سعيد داخل المطار لحين موعد الطائرة التي ستقلهما إلى ولاية نيو جيرسي.. رفعت عقيلة يدها وهي تقول: " باي عمو ".. أما سهيلة فأومأت برأسها وهي تجر ابنتها والهاند باك ضمن طابور الهابطين..

(١٤)

تحصن هاني داخل البالطو الشتوي الثقيل قبل أن يخرج من بوابة خروج الركاب إلى صالة الوصول.. تلفت يمينًا ويسارًا.. وجد من يحمل لافته مكتوب عليها اسمه بالكامل " الباشمهندس هاني إبراهيم عقل ".. أشار إلى حاملها.. تقدم شاب وسيم منه.. حمل عنه حقيبته الصغيرة الوحيدة.. وقاده إلى حيث أوقف سيارته..

فتح له الباب الخلفي.. وقال له وهو يجلس في مقعده.. " اللوا عمرو القاضي.. بيقول لحضرتك.. حمد الله على السلامة "..

أغلق الشاب الباب.. دار حول السيارة.. اتخذ موقعه خلف عجلة القيادة.. وبدأ في السير خارجًا من المطار..

مد هاني يده بالفلاشة ناحيته.. وهو يقول: " آسف.. إن سيادة اللوا تعبك معانا ".. تناول السائق ما قدمه له هاني.. وقال وهو يبادله النظر عبر المرآة: " يا باشمهندس.. إحنا لنا الشرف إننا نكون في خدمة سياتك ".. سأله هاني

إن كان يعرف إلى أين سيقوده.. رد عبر المرآة مرة ثانية وعلى فمه ابتسامة ثقة واسعة.. " اطمن سيادتك.. ح وصل حضرتك لحد باب البيت".. رفع هاني يده شاكرًا.. وأغمض عينه جلباً للراحة واختار فقرة من أدعية حنا المعمدان التي يُكثر فيها من شكر الرب على أنعمه وعطاياه.

(١٥)

عودة إلى مطار القاهرة الدولي..

بعد نحو ساعة زمن من توقيت هبوط الطائرة ٧٧٩ بمطار هيثرو.. اطمأن عمرو القاضي على وصول الفلاشة إلى حيث الحفظ والأمان لحين عودتها سالمة غانمة إلى القاهرة.. اتصل بمكتب الضابط الذي يستضيف سليمان منذ ما قبل ظهر هذا اليوم العصيب.. شكر الرجل على تعاونه معه.. رجاه أن يساعد سليمان على المبيت في المطار بأقل تكلفة ممكنة.. وأن يُغير له مسار تذكرة سفره لتكون على طائرة الغد المتجهة إلى فرانكفورت..

(١٦)

بعدها تحدث مع سليمان الذي ما إن سمعه يعيد ما قاله للعقيد.. حتى سارع بالقول منفعلاً : "أنا مش مسافر السفرية الهباب دي.. ومش ح أبيت في المطار.. أنا لازم أمشي دلوقتي.."

بهدوء أبلغه عمرو بضرورة سفره على طائرة الغد إلى فرانكفورت.. وشرح له أن الفلاشة أصبحت في الأمان التام.. وأن عليه أن لا يظهر أي قلق.. فالجامعة التي قدمت له المنحة لا ذنب لها فيما تعرض له من مؤامرة.. وقال له.. اذا كان شكيب قد هزأ منه.. فيجب عليه هو أن يضحك عليهم جميعًا ". ولما سأله: " إزاي؟ " أقنعه أن ذلك لن يتأتى إلا إذا أكمل سفريته واجتهد وعاد إلى بلده مصر.. وهو يحمل درجة الدكتوراه "..

سرح سليمان لعدة ثوانٍ فيما سمع.. واقتنع به.. شكر اللوا عمرو.. وأكد له أن سيسمع نصيحته ويسافر غدًا.. وسيكون على اتصال به: " بس من غير ما يكون فيه كوارث ولا مصايب".. قبل أن ينتهي الحديث بينهما.. سمع

سليمان المسئول الكبير على الطرف الآخر وهو ينصحه بضرورة التدقيق في كل ما يمر به من أحداث وحوادث.. وأن لا يترك أمره بين يدي من لا يثق به.. ولما أقسم له سليمان بأنه استوعب الدرس.. واصفًا القلم الذي تلقاه على قفاه من هذا الشكيب.. بأنه "ما زال يرن في أذنيه".. قال له عمرو: "انسى شكيب تمامًا.. ولازم تقابل زوجته زي ما هو رتب لك.. لأنها ما عندهاش فكرة عن أي حاجة.. وأوعى يبان عليك الإنفعال أو الإحباط، لما تنهي المقابلة معك دون ان تأتي على سيرة الفلاشة.. "..

أبدى سليمان اعجابه بالفكرة.. ووعد اللوا عمرة خيرًا.. وقبل ان تنتهي المكالمة.. سمعه وهو يدعو له بالتوفيق..

انفرجت أسارير سليمان وقام واقفًا.. ولما مَدَّ يده لتحية الضابط الذي فتح له مكتبه.. واستضافه لساعات طوال.. استمهله لحين عودة أمين الشرطة الذي سيصطحبه إلى حيث سيقضي ساعات الليل بإحدى غرف الترانزيت.. بعد أن غيَّر توقيت سفره إلى الغد..

انتهى